كنت معهم

تجربة إرهابي لم يكتمل

صابر حسين خليل

كنت معهم
صابر حسين خليل

الطبعه الاولي: 2017
رقـــم الايداع: 2017/22012

شركة دبير للتوزيع

2 عمارات الوادي المنطقة 11 - الحي الثامن-
مدينة نصر- القاهرة
01010106268
(002)24725789

كنت معهم

تجربة إرهابي لم يكتمل

صابر حسين خليل

الإهـــــــداء

إلـى الصغيـرة شـيماء شـهيدة الإرهـاب فـي تسـعينيات القـرن الماضـي، إن اغتيـال براءتـك كان الانفجـار الـذي أعادنـي للصـواب مـرة أخـرىٰ. وعرفانًـا بجميلـكِ أهديـكِ هـذا الكتـاب.

المـؤلـــــف

مقدمـــــة

الحمـد للـه علـىٰ نعمـة العقـل التـي ميـز بهـا الإنسـان عمـا سـواه، وجعلـه منـاط التكليـف، ورفـع سـبحانه وتعالـى التكليـف عمـن سُـلب هـذه النعمـة، والصـلاة والسـلام علـىٰ أفضـل خلـق اللـه الـذي حبـب إلينـا الإسـلام والـذي كان قـدوة فـي الرحمـة والتسـامح فقـال اللـه تعالـى مادحًـا خُلقـه ﴿وَإِنَّـكَ لَعَلـى خُلُـقٍ عَظِيم﴾ (القلـم:٤) وقال تعالـى مادحاً رحمته بالنـاس ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِيـن﴾ (الأنبياء:١٠٧).

أما بعـــد

لـم أتـردد فـي كتابـة موضـوع قـدر تـرددي فـي كتابـة صفحـات هـذا الكتـاب، سـنوات كثيـرة تفصلنـي عـن بدايـة هـذه التجربـة ونهايتهـا، لكنهـا لـم تشـجعني قط علىٰ الإمسـاك بالقلـم وخـط معالـم هـذه التجربـة، لعـل مـا كنـت أعانيـه مـن تخبـط بعـد نهايـة هـذه التجربـة هـو السـبب الرئيسـي لترددي هـذا، ومـا سـاعد علـىٰ تأخـر كتابتهـا محاولـة المقربيـن منـي وكل مـن يعلـم بتفاصيلهـا ممـن حولـي لإبعـادي عـن الخـوض فـي سـرد هـذه التجربـة وكتابتهـا، لمـا سـوف تجـره إلـيَّ مـن

المشكلات أنا في غنىٰ عنها حاليًا، وكانت النصيحة الأولىٰ منهم: عليك بدفن الماضي في الماضي.

لكني دومًا كنت أشعر بأحاسيس تمزقني من الداخل، ورغم أني لم أقترف فعلًا أو جريمة يعاقب عليها القانون، إلا أن إحساس الذنب يطاردني كلما خلوت إلىٰ نفسي. الآن وقد مَرَّ ثلاثة وعشرون عامًا علىٰ نهاية هذه التجربة وأكثر من ربع قرن علىٰ بدايتها. أجدني أُدفع دفعاً لتسجيل ملامح هذه التجربة بدايتها ونهايتها وما بين البداية والنهاية من أحداث كثيرة تحتاج لمجلدات عديدة لوصفها وتحليلها.

ومن أكثر ما يدفعني للكتابة ما رأيت من سقوط آلاف الشباب في هذه التجربة كما سقطت أنا منذ ربع قرن، لكن جُلُّهم لم يستطع الخروج منها سالماً كما خرجت أنا، أو كما ظننت أني خرجت. شبابنا الذين يقعون فريسة لغسيل العقول. فاستعنت بالمولى عزَّ وجل وبدأت سرد تجربتي، ورواية قصتي، تجربة شاب صغير في الصف الأول الثانوي، قصة من نوع خاص، تجربتي مع الجماعات الإسلامية أو بلفظ أدق تجربتي مع الجماعة الإسلامية في مرحلة من أحرج مراحل حياتي وهي خطواتي الأولى في مرحلة الشباب، مرحلة التكوين والتشكيل العقلي لكل

إنسان، قصتي كانت في مرحلة من أعنف مراحل تلك الجماعة مع النظام، تجربتي كانت في تسعينيات القرن الماضي. وقد سميت هذه التجربة بعنوان «كنت معهم.. تجربة إرهابي لم يكتمل».

وهذا العنوان اعترافٌ صريحٌ مني أني انصهرت في هذا الكيان في مرحلة ما، حتىٰ صرتُ جزءًا لا يتجزأ منه، آمنت بكل معتقداته، وانْصَعْتُ لكل أوامره، هذه تجربة لتفريخ إرهابي جديد من أفراد تلك الجماعة، لكنها تجربة لم تكتمل. وهذه التجربة هي رحلتي منذ بداية التجنيد في تلك الجماعة إلىٰ مرحلة الانسلاخ منها، أو كما يطلقون عليها بمصطلح الجماعات: مرحلة التفلت، مروراً بمرحلة اليقين بمعتقداتهم ثم مرحلة الشك حتىٰ مرحلة اليقين في ضلال ما يدعوننا إليه.

وكل مرحلة من تلك المراحل أخذت من عقل هذا الشاب الكثير والكثير حتىٰ وصل إلىٰ ذلك اليقين الذي يترسخ في ذهنه حتىٰ الآن، اليقين بأن الإسلام ليس هو ركن الجهاد فقط، لكن الإسلام عقائد وشرائع يُكمل بعضها بعضاً. فلا يمكن اختزال ذلك الدين المتكامل في فريضة واحدة دون سواها. وبأخطاء شرعية كبيرة وكثيرة في تنفيذها.

والسـؤال الـذي كان يراودنـي عندمـا شـرعت فـي كتابـة هـذه التجربـة، مـا المنهـج الذي سـوف أتبعـه في هـذا الكتاب؟ فـي البدايـة قـررت الصـدق فـي كل مـا سـأكتبه، فـلا أكتـب إلا الصـدق وإن كان هـذا الصـدق يصـب فـي غيـر صالحـي، وتجنـب الكـذب وإن كان يخـدم مـا أراه مـن الآراء، وابتعـدت عـن كتابـة الحواشـي والهوامـش وكذلـك المصـادر لـم أذكرهـا فـي آخـر الكتـاب وذكـرت كل مصـدر ومرجـع فـي مكانـه ولعل هـذا الأمـر جعلتـه خاصًّـا بالطبعـة الأولـى فقـط مـن الكتـاب؛ وذلـك حتـىٰ لا تتضخـم مـادة الكتـاب لكثـرة تلـك المـواد، فـإن كُتـب لـه طبعـات أخـرىٰ زودنـاه بـكل ذلـك. ورأيـت أنـه مـن المنصـف سـرد التجربـة كمـا هـي بعيـداً عـن الخلافـات الشـرعية والفقهيـة. سـرد التجربـة كمـا مـر بهـا هـذا الشـاب الصغيـر فـي حينهـا دون اللجـوء إلـىٰ مناظـرة منهـج هـذه الجماعـات بفكـري الحالـي، ولكـن سأسـرد التجربـة كمـا هـي، كمـا حدثـت بصيغـة أقـرب للروائيـة، وتبتعـد قـدر المسـتطاع عـن التحليـل وسـرد الشـبهات والـردود عليهـا.

فـي هـذا الكتـاب أنـا أسـرد قصتـي أنـا، لا أدعـي العلـم أو المقـدرة علـىٰ مناظـرة أفـكار تلـك الجماعـات كمـا يمكـن أن يحـدث مـن علمـاء الديـن، وكل مـا كتبـت خـلال هـذه الصفحـات هـو نتـاج تجربـة معايشـة حقيقيـة وانصهـار كامـل

مع هؤلاء، عشنا سويًا وسمعت منهجهم منهم هم وليس من صفحات الكتب، كتابي حياة متكاملة كانت، بكل لحظات اليقين ولحظات الشك، فلا تظن عزيزي القارئ أنك وقعت على كنزٍ من عالِمٍ في الدين أو في تاريخ الجماعات الإسلامية، كتابي هذا لا يعدو حياة فرد من أفراد هذا البيت، لكنه لن يحكي لك عن الشكل الخارجي لهذا البيت، لكنه سيصف لك هذا البيت من الداخل بكل تفاصيله، ويسرد لك كيف عاش مع أفراد هذا البيت وكيف كانت علاقته بهم.

عزيزي القارئ كتابنا هذا قصة شاب انزلقت قدمه في طريق تلك الجماعات وسار معهم حقبة من الزمن على اعتقاد منه بصدق طريقهم وصوابه.

لكنه بمرور الوقت بدأ الشك يتسرب إلى عقله حتى تحول إلى يقين بضرورة تغيير هذا الطريق.

عزيزي الشاب لا تسلم عقلك لمن يقول لك بفردية الصواب ولا جماعة بذاتها هي الأحق بالاتباع، الصواب والحقيقة لا يملكها فرد بعينه، لكنها نسبية ونسبيتها ترجع إلى ما يترسخ في عقليتك أنت من مقومات تحكم من خلالها على ملامح هذه الحقيقة. أيها الشاب المقبل على الحياة اقرأ.. اقرأ لكل من يكتب كلمة، اقرأ لمن يكتب

فـي أقصـى اليميـن واقـرأ لمـن يكتـب فـي أقصـى اليسـار، واقرأ لـكل مـن يكتـب بينهمـا، القـراءة المطلقـة سـبيلك للحقيقـة المطلقـة. لا تجعـل أحـدًا يختـار لـك مـا تقـرأ ومـا لا تقـرأ، لأن هـذا الاختيـار تقييـد للمعطيـات التـي مـن خلالهـا تحكـم علـىٰ حقيقـة الأشـياء.

وقـد حانـت اللحظـة لآخُـذَك بعقلـك وحواسـك لتعيـش معـي تجربتـي التـي عشـتها منـذ خمسـة وعشـرين عامـاً، لتكـون رافـدًا لـك مـن ضمـن الروافـد التي تسـاعدك فـي الحكم للوصـول إلـىٰ الحقيقـة التـي تنشـدها، فأنـا لا أدعـي معرفتـي بالحقيقيـة المطلقـة التـي يمكـن أن تتبناهـا أنـت، لكنـي أقـص عليـك رحلتـي أنـا في الوصـول للحقيقـة التـي أقنعتني أنـا، لعل هـذه الحقيقـة وهـذه التجربـة تسـاعدك أنـت فـي الوصـول للحقيقـة التـي تناسـبك أنـت. أنـا أقـص عليـك حقيقتـي التـي آمنـت بهـا بعـد رحلـة طويلـة مـن الزمـن. الحقيقـة التـي مـر علـىٰ إيمانـي بهـا مـا يقـرب مـن ربـع قـرن مـن الزمـان.

صابر حسين خليل

قبل التجنيد

قبل البدء في أولى مراحل هذه التجربة، كان لزاماً أن نتعرف علىٰ البيئة التي تحيط بمكان التجربة وزمانها، لأن الزمان والمكان هما المتغيران دائمًا وتبعًا لتغيرهما تتغير الحقيقة، فما يصلح في مكان ربما لا يناسبه مكان آخر، وما نعتقد أنه الحقيقة في زمان ربما نؤمن بعكسه في زمان آخر وبالطبع لا أقصد ثوابت الدين، المكان والزمان هما ما جعل لكل نبي رسالة ومعجزة تناسب مكان وزمان الرسالة التي نزل بها. المكان والزمان هما السبب في تغير الأدب الإنجليزي عن الأدب العربي، وجعلا الشعر الجاهلي مغايرًا للشعر الحديث. الزمان والمكان هما السبب في اختلاف النباتات والأشجار من مكان إلىٰ آخر، ومن فصل إلىٰ آخر. لذلك كله كانت معرفة زمان تلك القصة ومكانها من الضرورة بمكان.

الزمان: الثلث الأخير من عام١٩٩٠ في ذلك الوقت حدثت عملية اغتيال الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب في ذلك الوقت، وعضو الحزب الوطني البارز، وقد كانت هذه الحادثة الحد الفاصل بين ما قبلها وما بعدها، بين الجماعة الإسلامية والدولة، وبدأ العنف

المتبادل بين أفراد الجماعة والدولة. وكان السبب المباشر لعملية الاغتيال هذه هو الرد علىٰ عملية مقتل الدكتور علاء محي الدين المتحدث الرسمي باسم الجماعة الإسلامية الذي قُتل في نهاية شهر أغسطس من نفس العام. وقد وجهت الجماعة الإسلامية أصابع الاتهام لأجهزة الدولة في اغتيال الدكتور علاء محي الدين. وكان هذا الوضع هو قمة منحنى التوتر بين الجماعة والدولة إضافة إلىٰ أحداث العنف في ديروط والمنيا. علاقة التربص والانتقام هي العلاقة بين أجهزة الداخلية والجماعة الإسلامية في حينها.

المكان: حلوان تلك الضاحية الجنوبية من القاهرة التي كانت قبل ثورة١٩٥٢ مسكن علية القوم وأسماء شوارعها شاهد علىٰ ذلك حتىٰ الآن، فمازالت تحمل أسماء سكانها من الباشوات والبهوات مثل شارع منصور وشارع خسرو وشارع رايل وشارع مصطفى فهمي وشارع محمود خاطر وغيرها الكثير، وكانت حلوان مشفى للكثير من الأمراض، فكان أطباء ذلك الوقت يصفونها للمرضى للشفاء وقضاء فترة النقاهة؛ لنقاء جوها واعتداله، وكانت تشتهر بتقسيمها العمراني البديع والقصور والفلل الفارهة، ومياهها الكبريتية الشهيرة حتىٰ أطلق عليها من كثرة عيونها الكبريتية بحلوان الحمامات. حيث كانت مياهها مقصداً للجميع.

ولكن حال هذه المدينة الجميلة انقلب رأساً على عقب بعد ثورة١٩٥٢، حيث حولتها الدولة لمنطقة صناعية بإنشاء مصانع الحديد والصلب والمصانع الحربية والهيئة العربية للتصنيع ومصانع الأسمنت ومصنع النسيج وغيرها. وهذه المصانع تحتاج بالضرورة إلى الآلاف من العمال، وهؤلاء العمال يحتاجون للمساكن لهم ولأسرهم. وقد أنشأت الدولة الكثير من المساكن الشعبية لهؤلاء العمال في محيط حلوان، لكنها لم تستوعب هذا الكم الوافد من شتى بقاع الجمهورية، فنشأت المناطق العشوائية على حدود المدينة، وبمرور الوقت تلامست هذه المناطق مع المدينة الأم فتغير التركيب السكاني للمدينة وهجرها السكان الأصليون وحل محلهم هؤلاء العمال، وفي هذه المناطق العشوائية ظهر الجيل الثاني لهؤلاء العمال، أولادهم الصغار قد كبروا في هذه البيئة العشوائية، والقليل من الموارد التي تسد حاجتهم بالكاد.

وفي هذه البيئة العمالية تسرب بينهم من صعيد مصر طائفة أخرى من العمال باليومية الذين امتهنوا كافة المهن المرتبطة بالبناء والتشييد. وكان اتساع هذه المناطق العشوائية عاملًا مساعدًا في جذب المزيد والمزيد من هذا النوع من العمال، وذلك لأن الصعيد لا يوجد به مصدر للرزق غير الزراعة التي لا تسد حاجة أهلها من القوت الضروري.

وفـي حلـوان بـدأ أطفـال العمـال الصغـار يلعبـون فـي هـذه البيئـة ويتعلمـون فـي مدارسـها، الفقـر يحيـط بهـم فـي هـذه البيئـة، ولكنـه أقـل قسـوة مـن بيئتهـم الأصليـة. وظهـرت أجيـال أخـرىٰ فـي هـذه العشـوائيات، أجيـال لـم تَتَـربَّ فـي بيئتهـا الأصليـة، ولكنهـا أجيـال وليـدة تلـك العشـوائيات المتكونـة حديثًـا.

فـي وسـط هـذه البيئـة وهـذا المـكان جـاءت بـذرة الجماعـات الإسـلامية ونمـت فيهـا، فكانـت حلـوان فـي هـذا الوقـت هـي البيئـة المثاليـة للجماعـة الإسـلامية. فبـدأت نشـاطها فـي بيئـة العمـال فـي مصانـع حلـوان ثـم تسـربت إلـىٰ الجامعـات والمـدارس، وهـذا علـىٰ عكـس مـا حـدث فـي بدايـات الجماعـة ومرحلـة تكوينهـا، حيـث كانـت البدايـة فـي الجامعـات ثـم انتقلـت منهـا للمجتمـع وهـذا مـا حـدث فـي جامعـات الصعيـد. وكنـتُ واحـدًا مـن أبنـاء أحـد هـؤلاء العمال الـذي نـزح بأسـرته مـن أقصـى الجنـوب الغـارق فـي الفقـر والعـوز؛ ليبحـث عـن فرصـة حيـاة كريمـة ليعـول بهـا أسـرته الصغيـرة. فـي البدايـة جـاء بـدون أسـرته وعندمـا اسـتقرَّ بـه العمـل فـي أعمـال البنـاء والتشـييد ووجـد مـا يتحصـل عليـه مـن نقـود أكثـر بكثيـر ممـا لا يجـده فـي بلدتـه الفقيـرة. فرجع للبلـدة وأحضـر أسـرته وأبنـاءه الصغـار وكنـت أنـا أكبـر أولاده

الذكور وكنت قد أنهيت الصف الثاني الابتدائي في قريتي بالصعيد وكان ذلك في عام١٩٨٣. كان المنزل الذي نقطن فيه في إحدى هذه المناطق العشوائية بحلوان.

سنوات تمر وتتغير عقلية هذا الطفل الصغير فيتبدل حاله من البلادة وقلة الاهتمام بالدراسة، إلىٰ طفل نشيط يحب المذاكرة والدرس، ولعل هذا الانتقال من بيئة إلىٰ أخرىٰ كان السبب الأول في تغير حال هذا الطفل، ففي بلدته الكل لا يهتم بالمذاكرة إلا النَّزْر القليل من التلاميذ ويرجع ذلك إلىٰ الاستعانة بهؤلاء الأطفال في الزراعة، فولي الأمر لا يهتم بالمدرسة بقدر اهتمامه بالأرض والزراعة، أما في البيئة الجديدة فلا أرض ولا زراعة سوى المدرسة والمذاكرة، وهذا هو سبب حصولي علىٰ المركز الأول في الصف السادس الابتدائي في مدرستي، وكذلك أنهيت المرحلة الإعدادية بتفوق مماثل.

التكوين العقلي: وفي المرحلة الابتدائية كان لدي ميل كبير للقراءة فكنت لا أرى قصة من قصص الأطفال إلا وقرأتها وكنت ممن أدمن هذه العادة عادة القراءة لدرجة أني كنت أقرأ كل قصص مكتبة الفصل وهذا كان نظامًا متبعًا في ذلك الوقت حيث يشتري كل تلميذ قصة فيكون في الفصل قصص بعدد التلاميذ وتسمى مكتبة الفصل،

وكان ثمن القصة لا يتعدى خمسة وعشرين قرشًا في ذلك الوقت، وكنت أقرأ المكتبة بأكملها في أسبوع واحد ثم أزحف لمكتبات الفصول الأخرى وقد علم أساتذتي هذا عني فكانوا يساعدونَنِي علىٰ ذلك، وكان في المنطقة مكتبة صغيرة تبيع قصص الأطفال وكان صاحبها يسمى (بابا نور) هكذا كان الأطفال ينادونه، وكنت أشتري منه كل قصة جديدة وكان يُعرفني دائمًا بالجديد من تلك القصص، وكانت هذه القصص السبب الرئيسي في قدرتي علىٰ القراءة السليمة فلم تكن القراءة تسبب لي أدنى مشكلة في حينها بعكس الكثير من أقراني، الذين كان التلعثم رفيقهم في القراءة.

وفي المرحلة الإعدادية أدمنت قصصًا أخرىٰ وهي رجل المستحيل وملف المستقبل والمكتب رقم١٩ وكان نبيل فاروق كاتبي المفضل، وكذلك قرأت المغامرين الخمسة والمغامرين الثلاثة، وع في ٢، وقرأت مجلات ميكي وماجد، ومن نبيل فاروق تعلمت الكثير والكثير من مفردات اللغة وخصوبة الخيال من مؤلفاته الكثيرة مما أثرى عقلية هذا الطفل الصغير، فأنهيت المرحلة الإعدادية بهذا الشغف المتزايد للقراءة.

والتحقت بالمدرسة الثانوية الوحيدة بحلوان في ذلك

الوقت مدرسة صلاح سالم، دخلت هذه المدرسة وأنا محمل بطموحات وأحلام كثيرة، كان عشقي للقراءة والعلوم والرياضيات حافزي الأول، سأصبح من علماء مصر بل من علماء هذا العالم، سأصبح نجمًا في دنيا العلم، سأملك ما أغير به ما حولي، سأخترع ما أفيد به البشر، سأكون من أسباب تقدم البشرية نحو مستقبل أفضل، كل هذه الأحلام كانت تترسخ في عقلية صاحب الخمسة عشر عامًا، لكنه كان لا يعلم ما ينتظره بداخل أسوار هذه المدرسة التي بدورها ملكت ما غير حياة هذا الصغير لكنه إلىٰ طريق مختلف لما كان يتمنى، سنوات هذه المدرسة الثلاثة كانت وما زالت السبب الرئيسي في تحول حياتي من خط بياني صاعد إلىٰ عدة خطوط منكسرة لها قمم وقيعان كثيرة، في مدرسة صلاح سالم كانت دنيا غير تلك الدنيا التي تقع خارجها، وفي هذه المدرسة كانت البداية، بداية التجربة.

المدرسة الثانوية

كنا أربعة أصدقاء جمعنا السكن في منطقة شعبية تابعة لحلوان تسمى عرب أحمد غنيم، جمعنا السكن والفقر والعمر الواحد، شاءت قدرة الله أن يؤلف بين

قلوبنا فاجتمعنا في نهاية الصف الثالث الإعدادي على المذاكرة الجماعية وذلك قبل تطبيق نظام الفصل الدراسي، فكان الامتحان في نهاية العام، كنا نجتمع كل ليلة بعد صلاة العشاء وحتى الفجر للمذاكرة، وفي خلال شهر واحد حصلنا المناهج الدراسية كلها، كنت أنا وطلعت وهاني وطه أربعة أخوة لا أصدقاء، وصداقة هذه المرحلة من العمر هي أصدق أنواع الصداقات لأننا لم نكن قد تلوثنا بعد بأمراض البشر وأعظمها المصلحة، في هذا الوقت من العمر جمعتنا براءة الطفولة وتشابه الشخصيات، ورغم أن الدنيا قد فرقتنا في دروبها، إلا أني أحن لتلك الصداقة، ذاكرنا سويًا ونجحنا جميعاً والتحقنا بالمدرسة الثانوية، ولأن التوزيع على الفصول كان يخضع للنظام الهجائي لم نجتمع في فصل واحد، وبقيت صداقتنا في الذهاب والإياب للمدرسة الثانوي التي كانت تبعد عن منازلنا ما يقرب من ثلاثة كيلومترات، كنا نمشيها سوياً كل يوم ونقضي الوقت في الحديث والمسامرة واللعب حتى نصل إلى المدرسة.

وبدأت الدراسة تأخذنا في غياهب الكتب والواجبات المدرسية، وكنا نصلي الظهر في مسجد المدرسة في وقت الفسحة.

الخطوة الأولى

وفي المسجد كانت الخطوة الأولى، في المسجد كان هناك من يراقب المترددين عليه وينتقي منهم، في المسجد كان هناك صياد يبحث عن فريسة جديدة تنطبق عليها شروطه لصيدها، كنا نحن الفريسة وكان هو الصياد الذي ظل وقتًا طويلًا يراقبنا في صمت حتىٰ قرر التحرك لاقتناص فريسته الجديدة ويا له من صيد ثمين إنهم أربع فرائس، تودد إلينا أحد رواد المدرسة ويدعى سيِّدًا إلىٰ أربعتنا فقد كان مدخله إلىٰ الحديث معنا أنه أحد جيران طه صديقنا، وكان شخصًا دمث الخلق وبشوشًا وهادئ الطباع وصاحب صوت ملائكي في قراءة القرآن.

بدأ الحديث عادياً جداً عن المدرسة والمذاكرة والمدرسين، هكذا كان حديثه الأول، حديث عادي لا يدعو إلىٰ الشك أو الريبة، تكررت الأحاديث واختلفت مع الأيام موضوعات تلك الأحاديث، المدرسة والمدرسون المذاكرة، ثم تطرق في حديثه معنا عن الصلاة ووجوب المحافظة علىٰ أدائها في وقتها، وفضل المحافظة علىٰ السنن والأذكار.

مرت الأيام وسيد يتودد إلينا يومًا بعد يوم، وأحضر لكل واحد منا كُتَيِّبًا صغيرًا لأذكار الصباح والمساء، بدأت

كلمات سيد تؤتي أُكلها لدينا وخاصة أنا وصديقي هاني، بدأنا في المحافظة علىٰ الصلاة وقراءة القرآن وأذكار الصباح والمساء، وبدأ سيد يحثنا علىٰ الصلاة في مساجد بعينها بحجة وجود دروس دينية مفيدة في تلك المساجد، وعرفنا مسجد عمر بن الخطاب ذلك المسجد الكائن علىٰ أطراف عرب غنيم. وأخذ الحديث يأخذ صورة مختلفة، فكان الحديث عن الصحابة والجهاد وفضله، ثم الحديث عن فضل الصحبة الصالحة والتعاون علىٰ البر والتقوى، ثم جاء الموضوع الأهم حدثنا سيد عن العمل الجماعي. ثم جاء إلينا بالأدلة من القرآن والسنة علىٰ وجوب العمل الجماعي، كل ذلك وعقولنا الصغيرة تمتص ما يقوله سيد كقطعة إسفنج تمتص قطرات الماء، رويداً رويداً أصبحنا أنا وهاني نؤمن بكل ما يقوله لنا سيد ودخلنا في التزام حقيقي بالصلاة وصلاة الفجر علىٰ الأخص، وترسخ في فكرنا وجوب العمل الجماعي، ثم كشف لنا سيد عن السر الأعظم إنه عضو في جماعة! إنه عضو في الجماعة الإسلامية، وعرض علينا الانضمام إليها، وافقنا دون تردد لأننا لا نملك ما نقاوم به، قلنا له: نريد الانضمام.

وهنا أنهىٰ سيد مهمته وهي تجنيدنا أنا وهاني، فتلقفتنا يدٌ أخرىٰ لنبدأ أولىٰ خطواتنا خلف بوابة هذا العالم.

فُتح الباب

في المساء جلسنا أنا وهاني نناقش ما حدث، هل نصبح بالفعل أعضاءً في جماعة إسلامية؟ هل ما نقبل عليه صواب أم خطأ، وماذا يكمن خلف باب الانضمام للجماعة الإسلامية. لكن ما ترسخ في عقولنا وتعلمناه في الأيام القليلة الماضية جعلنا نقرر أن ندخل هذا الباب، باب الجماعة الإسلامية.

وبعد صلاة العصر من اليوم التالي اجتمع بنا شخصٌ يدعى عماد كان في بداية المرحلة الجامعية، وكان صاحب كاريزما خاصة، شخصية قيادية، متبسمًا في وجه الجميع دائمًا. تحدث معنا عماد عن العمل الجماعي ووجوبه وعن الطائفة الناجية، كانت كلماته كالسحر يسري في عقولنا.

غسيل الأدمغة

ثم بعد ساعة جاء شخص آخر أكبر سناً يدعى حسامًا، شخصيته تتسم بالغموض لكنه أكثر علماً من عماد ويبدو أنه أكثر مكانة في الجماعة منه، رحب بنا وتعارفنا، وبدأ الحديث معنا عن الجماعة الإسلامية، ولماذا الجماعة

الإسلامية هي أصح جماعة موجودة على ساحة العمل الجماعي، وفي ثنايا الحديث كان يتجاذب معنا الضحكات، وفي هذا الوقت تمت الجلسة الأولى من عملية غسيل الأدمغة، من حفر مجرى معين داخل عقولنا الصغيرة، مجرى محدد الاتجاه والعمق والأبعاد. في هذه الجلسة تم سريان نوع جديد من المعرفة، معرفة محددة بعينها لتنساب في المجرى المحدد بعينه.

لم تشبه هذه المعرفة ما كنت أتحصل عليه من القراءة الحرة، هذه المعرفة أقرب إلىٰ التلقين منها إلىٰ المعرفة. هذه المعرفة التي أنهل منها معدة مسبقاً بواسطة أشخاص لهم ميول بعينها لتنفيذ هدف بذاته. في جلستنا هذه كنا أقرب لمستقبِلٍ سلبيٍ تجاه ما يقدَم له، فكثرة المعلومات والأدلة لم تجعل لنا طريقًا لمناقشتها، إضافة إلىٰ هشاشة عقولنا الصغيرة في مثل هذه الأمور.

خرجنا من هذه الجلسة أنا وهاني وقد صرنا أعضاء جدُدًا في الجماعة الإسلامية، وقد تعرفنا علىٰ شخصين غير سيد الذي يكبرنا بعام واحد، فقد قابلنا عمادًا وحسامًا وفيما يبدو هما الشخصان المنُوطُ بهما الإشراف علىٰ أعضاء الجماعة في المرحلة الثانوية، هذه الجلسة نزعتنا من عالمنا الطفولي نزعًا، لقد تحملنا مسئولية إعادة

الخلافة وإقامة الدين، في هذه الجلسة تم تجريدنا من البراءة التي تميز عمرنا الصغير، الألوان تغيرت من حولنا، والأحلام تبدلت، والمستقبل اتخذ طريقًا مغايرًا تمامًا لما كنا نحلم به، إن السحر المنبعث من كلمة قال الله تعالى وقال الرسول ﷺ جعلنا نؤمن بما بعدهما دون تفكير، لكن الطامة الكبرى كان الإيمان بحسب فهمهم هم لقوله تعالى وقول رسوله الكريم، الفهم يقدم إلينا جاهزًا من لدن هؤلاء.

خرجنا من هذه الجلسة وقد تم ضمنا إلىٰ أسرة الأعضاء الجدد من الجماعة، وسنتحدث عن نظام الأسر عندما نعرض للحديث عن التنظيم الهيكلي للجماعة. وبدأتُ في هذا اليوم رحلة استغرقت ما يقرب من ثلاث سنوات، رحلة تعلمت فيها الكثير، لكن ما فقدته كان أكثر مما تعلمته.

بداية التغيير

بدأت حياتي في الانقلاب رأساً علىٰ عقب مع بداية هذه الحياة الجديدة، لم أعد أستمع للموسيقى فقد كنت أحبها وقد قيل لنا بحرمتها فلا يجوز سماع أي نوع من أنواع الغناء، وقد كنت مغرمًا بالموسيقى والغناء فبدأت

أبتعد عن سماع كل أنواع الغناء، وكذلك التلفاز فقد هجرته رغم ما كان بيننا من غرام وخاصة أفلام الأبيض والأسود، لم تعد حياتي كما كانت عفوية، أصبح كل شيء يصنع بقصد بعد تفكير في كل شيء وهل هو حرام أم حلال، لم أعد أضحك في البيت، لم أعد أجلس مع إخوتي وأصبح البيت بالنسبة لي مطعمًا لتناول الطعام ومكانًا للنوم، وبمرور الوقت تكونت فجوة بيني وبين أسرتي سرعان ما ابتلعت كل المشاعر النبيلة التي كانت تربطني بأسرتي.

أما المذاكرة فلم أعد شغوفاً بها كما كنت، فأصبحت أشعر كلما ذاكرت أنني أحمل جبلًا فوق صدري، وكان مسؤولو الجماعة يتجاهلون حث أفرادهم علىٰ المذاكرة ولا أدري هل هذا الأمر خاص بأفراد الجماعة بحلوان، أم هو أمر عام في الجماعة الإسلامية؟

وفي المدرسة كان هناك تغير مماثل من التركيز علىٰ قراءة القرآن والأذكار والصلاة في مسجد المدرسة، وإهمال الجانب الدراسي. وفي مساء كل يوم كان هناك قيام الليل بركعتين علىٰ الأقل.

والقراءة معشوقي الأول تغيرت ملامحها تمامًا وبدأت تنْصَبُّ في كتب دينية بعينها، وابتعدت عن القراءة

الواسعة البناءة وهي قراءة كل ما يقع تحت يدي من كتب وقصص وروايات.

وهكذا بدأت عملية تشكيل النفس لعضوٍ جديدٍ من أعضاء الجماعة الإسلامية.

الميثاق

وفي جلسات الأسرة التي كانت تقام مرتين أسبوعياً بدأنا معرفة كتب الجماعة، وهي كتب خاصة بالتنظيم لفكر الجماعة، وهذه الكتب أُلِّف معظمُها في السجون عقب عملية اغتيال الرئيس السادات التي قامت بها الجماعة الإسلامية. وكان ميثاق العمل الجماعي أول هذه الكتب.

في الاجتماع الأول لأسرة الأعضاء الجدد كنا ستة أعضاء وكان المسئول هو عماد، وكانت الاجتماعات تتم في منزل أحد أعضاء الجماعة.

وكانت هناك احتياطات أمنية تتم في هذه الاجتماعات، مثل الوصول لمكان الاجتماع واحد تلو الآخر، وكل واحد يأتي من طريقٍ مختلفٍ وهكذا الحال عند انتهاء الاجتماع.

كانت هذه الأشياء غريبة جداً بالنسبة لي ولصديقي هاني، أحسسنا بشعور غريب وكأننا داخل عصابة، ولكن

هـذه العصابـة مـن نـوع جديـد. هـذا الإحسـاس سـكن بداخلي أنـا وهانـي ولكـن لـم يجـرؤ أحدنـا علـىٰ أن يخبـر بـه صديقـه.

بـدأ الاجتمـاع الأول بالتعـارف ثـم بـدأ عمـاد فـي شـرح ميثـاق العمـل الجماعـي وبـدأ محاضرتـه الأولـى لنـا. وزع علينـا أوراقًـا تحمـل الميثـاق الخـاص بالجماعـة الإسـلامية، ثـم بـدء عمـاد فـي الاسترسـال فـي شـرحه لكتـاب ميثـاق العمـل الجماعـي.

غايتنا وما يتبعها

- **غايتنـا:** رضـا اللـه تعالـى بتجريـد الإخـلاص له سـبحانه وتحقيـق المتابعـة لنبيه ﷺ.
- **عقيدتنا:** عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلاً.
- **فهمنـا:** نفهـم الإسـلام بشـموله كمـا فهمـه علمـاء الأمـة الثقـات المتبعـون لسـنته ﷺ وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهدييـن رضـي اللـه عنهـم.
- **هدفنا:** ١- تعبيد الناس لربهم.
  ٢- إقامة خلافة علىٰ نهج النبوة.
- **طريقنـا:** الدعـوة والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر والجهـاد فـي سـبيل اللـه مـن خـلال جماعـة منضبطـة حركتهـا بالشـرع الحنيـف، تأبـى المداهنـة

أو الركـون وتسـتوعب مـا سـبقها مـن تجـارب.

- **زادنـا:** تقـوى وعلـم، يقيـن وتـوكل، شـكر وصبـر، زهـد فـي الدنيـا وإيثـار للآخـرة.
- **ولاؤنا:** لله ورسوله وللمؤمنين.
- **عداؤنا:** للظالمين.
- **اجتماعنـا:** لغايـة واحـدة بعقيـدة واحـدة، تحـت رايـة فكريـة واحـدة.

هـذا هـو ميثـاق العمـل الجماعـي كمـا أجملـه لنـا عمـاد وكمـا حفظنـاه عـن ظهـر قلـب طـوال فتـرة انضمامـي للجماعـة. وبـدأ عمـاد يشـرح لنـا كل فقـرة مـن الميثـاق ويسـتدل مـن القرآن والسـنة مـا يؤيـد مـا يذهـب إليـه مـن قـول.

فـي جلسـتنا الأولـى عرفنـا الخطـوط العريضـة لفكـر الجماعة الإسـلامية، وعرفنـا ميثـاق العمـل الجماعـي الـذي يعـد الأسـاس لـكل فكـر الجماعـة. انتهـى الاجتمـاع الأول وقـد أحسسـت أننـي خرجـت منـه بعقـل غيـر العقـل الـذي دخلـت بـه. وكأن عقلـي غُسِـل وفُـرِّغ مـن كل الثوابـت السـابقة لتحـل محلها أشـياء جديدة، لكـن شـتان بيـن ثوابتـي القديمـة التـي لَمْلَمْتُهـا مـن قـراءات شـتى وبيـن الثوابـت الجديـدة التـي جاءتنـي جاهـزة علـىٰ يـد أشـخاص بعينهـم. هـل مـا عُـرِض اليـوم علـىٰ عقلـي هـو الحقيقـة المجـردة الوحيـدة؟ أم أن مـا حـدث لـي مـا هـو إلا غسـيل مـخ؟.

حول الميثاق

وفي طريق عودتي إلىٰ المنزل بدأ رأسي وكأن سكان العالم كلهم يسكنون فيه، ما هذا الذي أقدمت عليه؟ ما هذا الذي أسمعه؟ هل هذه هي طموحاتي للمستقبل أن أصبح عضواً في جماعة إسلامية؟، ثم بدأت أفكاري الجديدة تحاول السيطرة علىٰ هذا العقل، هذا هو الطريق للجنة، لإقامة دين الله علىٰ الأرض وهذه الجماعة هي أصح الجماعات الموجودة علىٰ الأرض. وهذا هو الدليل، إنه ميثاق عملهم، وأول هذا الميثاق هو الغاية من هذا العمل الجماعي. رضا الله فلتكن هي غايتي إرضاء الله عز وجل وليكن هدفي هدفهم السامي أن يعبد الناس ربهم وإقامة دين الله علىٰ أرض الواقع.

فهل هناك أسمى من أن تبيع نفسك لدين الله. نِعم هذا البيع، حرب ضروس دارت في رأسي حاولت أفكاري القديمة التمسك بالحياة وعدم الاستسلام لأفكار الجماعة والسقوط الذي لا رجعة منه، لكن في النهاية بدأت الأفكار الجديدة تتغلب علىٰ أفكاري القديمة حتىٰ طردتها تماماً، وأعلن عقلي الاستسلام نهائيًا لفكر الجماعة، وبدأ ميثاق الجماعة الإسلامية يصبح دستور حياتي ما دمت عُضْوًا في هذه الجماعة.

وبـدأت قدمـي تتوغـل أكثـر وأكثـر فـي فكـر هـذه الجماعـة. وتوالـت اجتماعـات الأسـرة، وتوالـت أفكارهـم واحدة تلـو الأخـرى تترسـخ بداخلـي. تنسـاب معارفهـم وثقافتهـم فـي المجـرى الـذي تشـكَّل بداخـل عقلـي الصغيـر.

اليوم الرياضي

بعـد صـلاة الفجـر يـوم الجمعـة كان الموعـد فـي مـكان مخصـص للعـب كـرة القـدم بمركـز شـباب تحـت الإنشـاء فـي عـرب غنيـم. أفـراد الجماعـة يَصِلُـون واحـدًا تلـو الآخـر، حتـىٰ امتـلأ المـكان بأفـراد الجماعـة الإسـلامية وبـدأت فاعليـات اليـوم الرياضـي. فـي هـذا اليـوم لـم نفتـرق أنـا وهانـي، الكثيـر مـن أفـراد الجماعـة كنـا نعـرف التزامهـم فـي السـابق لكننـا لـم نكـن نتوقـع انتماءهـم للجماعـة الإسـلامية.

الكثيـر مـن العمـال والطـلاب الجامعييـن وطـلاب الثانـوي العـام والثانـوي الفنـي، أفـراد التقينـا بهـم لأول مـرة وبـدأت فـي هـذه اللحظـة أشـعر أننـي أنتمـي لهـذه الفئـة مـن البشـر. كل مـن رأيتهـم مـن أفـراد الجماعـة فـي اليـوم الرياضـي ينتمـون إلـىٰ نفـس الشـريحة الاجتماعيـة: عُمَّـال وأبنـاء عمـال أو موظفيـن صغـار فـي جهـات مختلفـة. هـذه الشـريحة التـي تعانـي الفقـر والعـوز، كلنـا فقـراء وأبنـاء الفقـر ذاتـه، لكـن هل

كان الفقر هو الدافع الأول إلىٰ الانتماء لهذه الجماعة؟، كان الجهل دافعًا آخر إلىٰ الدخول للجماعات الإسلامية. الجهلاء يسهل السيطرة عليهم، ومن الأسهل التلاعب بعقولهم. الفقر والجهل أول العوامل المشتركة التي جذبت انتباهي في أفراد الجماعة، إضافة إلىٰ العمر الصغير نسبيًا.

سرعان ما بدأت فعاليات اليوم الرياضي للعب كرة القدم، وألعاب أخرىٰ مثل شد الحبل ومسابقات الجري وسباق الدراجات وغيرها. وكذلك المسابقات الثقافية، إنه برنامج معد مسبقاً وله مسؤول أو ما يعرف بأمير اليوم الرياضي.

الحور العين

تعالت ضحكات الجميع وتآلفت القلوب. وهو الهدف المقصود من اليوم الرياضي هذا، وقبل نهاية اليوم جلسنا مجتمعين وجاء الشيخ محمد وألقى علينا خطبة تكلم فيها عن الجنة وما ينتظر المؤمن من نعيم والحور العين، لقد تكلم الشيخ عن الحور العين، حديث أسال لعاب الشباب ومعظمهم لم يتزوج بعد، وبينه وبين الزواج عقبات وعقبات. حديث أسال شهوات هذا الشباب وجلهم مازال في مرحلة المراهقة أو تعداها بقليل، لم يراع شيخنا هذه

الأشياء، أو هل هو كان يقصد إثارة هذه المشاعر لدى هؤلاء الشباب. لا أعلم ساعتها مقصده من هذا الشرح المبالغ فيه عن حور العين، يا له من وصف دقيق لهذه النساء، جمال الجسد وبياضه الذي يظهر من خلف سبعين ثوبًا، من أين أتى هذا الشيخ بوصف لحظات الجماع مع الحور العين، إن وصف الشيخ أقرب لفيلم ممنوع من العرض، فهل ما قاله حقيقة؟ وهل كل الحقيقة تقال لكل الناس، هذا الشباب صغير السن ظل شارد الذهن طوال خطبة شيخنا الجليل.

وبمرور الأيام أيقنت أن الحديث عن الحور العين من الأحاديث الهامة في فكر الجماعات الإسلامية كلها، فهي إحدى الجوائز التي تنتظر هؤلاء.

لقد انتهى اليوم الرياضي قبيل صلاة ظهر الجمعة مباشرة وكان محدّدًا لنا سلفاً مسجد بعينه لأداء الصلاة فيه.

الفريضة الغائبة

وبعد أن أنهينا ميثاق العمل الجماعي في اجتماعات الأسرة، بدأت تتوالى علينا شروح المؤلفات الأخرى للجماعة وكان علىٰ رأسها كتاب الفريضة الغائبة، وهو بحث صغير ألفه محمد عبد السلام فرج ونشر النسخة الأولى منه

عـام١٩٨٠، ومحمـد عبـد السـلام فـرج مـن مؤسسـي الجماعـة الإسـلامية وكان كتابـه هـذا المُنظـر للعنـف الـذي تبنتـه الجماعـة الإسـلامية، وقـد أُعـدم محمـد عبـد السـلام فـرج فـي قضيـة مقتـل السـادات، وكان كتابـه هـذا طريقـه إلـىٰ الإعـدام.

فـي اجتماعـات أسـرتنا عرفنـا أن الجهـاد هـو المكمـل للدعـوة والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر وقـد أهملـه العلمـاء فـي وقتنـا الحاضـر فيقـول عبـد السـلام فـي بحثـه «فـإن الجهـاد فـي سـبيل اللـه بالرغـم مـن أهميتـه القصـوى وخطورتـه العظمـى علـىٰ مسـتقبل هـذا الديـن فقـد أهملـه علمـاء العصـر وتجاهلـوه بالرغـم مـن علمهـم بأنـه السـبيل الوحيـد لعـودة ورفـع صـرح الإسـلام مـن جديـد»، والكتـاب يأتـي بالأدلـة مـن القـرآن والسـنة أن الإسـلام لـن ينتصـر إلا بقـوة السـلاح ويجـب علـىٰ المسـلمين أن ينخرطـوا فـي الجهـاد والقتـال مهمـا كان عددهـم بالنسـبة لعـدد أعدائهـم، ومهمـا كان اسـتعدادهم لهـذه المواجهـة فيقـول عبـد السـلام فـرج «جيـوش المسـلمين علـى مـر العصـور قليلـة العـدد والعـدة، وكانـوا يواجهـون جيوشـاً أضعافهـم».

والكتـاب يقـول بوجـوب قتـال الحـكام الذيـن يمتنعـون عـن شـرائع اللـه فهـم كفـرة «قـد اتفـق علمـاء المسـلمين علـىٰ أن الطائفـة الممتنعـة إذا امتنعـت عـن بعـض واجبـات

الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها»، وكذلك قال عبد السلام فرج عن قتال أعوانهم وإن كان الكفر لا ينصب عليهم لكن لو عاونوا الحاكم يجب قتالهم وإن كانوا مجبرين على هذا القتال يبعثوا على نياتهم.

وتحدث الكتاب عن العدو البعيد والعدو القريب، فالمستعمر هو العدو البعيد والحكام هم العدو الأقرب الذين يجب مقاتلتهم حتىٰ يرضخوا لشرائع الله، وبعدها يتم محاربة العدو البعيد وهو المستعمر مثل إسرائيل. فيقول عبد السلام في كتابه: إن محاربة الحكام في مصر أولىٰ من محاربة إسرائيل.

وطالب الكتاب بإقامة الخلافة وتنصيب خليفة للمسلمين وهذا أمر واجب بالأدلة الشرعية فيقول عبد السلام فرج «ولقد أجمع المسلمون على فرضية إقامة الخلافة الإسلامية وإعلان الخلافة يعتمد علىٰ وجود النواة وهي الدولة الإسلامية».

هكذا شُرح لنا الكتاب وظهر لنا من خلال هذا البحث دور فتاوى ابن تيمية في الاستنباط لفكرة الجهاد ودور السلم والكفر والدور المركبة، في اجتماع الأسرة لم نكن نملك ما نناقش به هذا الفكر الذي يصب في عقولنا صبًا، ولم نكن ندري كيف نقاومه، وكأن فكرة القوة

والعنف صادفت هوى لدينا فكانت هذه أول مرة نسمع عن فكر الجهاد لدى الجماعة الإسلامية بهذا الشرح، الجهاد هو سبيل الجماعة لتطبيق شرائع الله علىٰ أرض الواقع.

وفكر العنف هذا من أهم الاختلافات بين الجماعة الإسلامية وغيرها من الجماعات الأخرى.

بعد دراسة هذا الكتاب أحسست أنني أصبحت شخصاً آخر أكثر قسوة وأكثر عنفاً في مشاعري تجاه الآخرين وتجلى ذلك بوضوح في تعاملي مع أسرتي، فأصبحت أعلى صوتًا حتىٰ في نقاشي مع أبي وأمي وبدأت أغير ما أراه ضد الشرع، أغيره بيدي. بدأت في تكسير كل أشرطة الكاسيت وحل بدلاً منها أشرطة القرآن والخطب الدينية، وعندما أراهم يشاهدون التلفاز أغلقه بالقوة. نعم تغيرت وصرت أكثر إهمالاً لدراستي وهجرت القراءة إلا في الكتب الدينية وبالأخص كتب الجماعة أو ما ترشحه لنا الجماعة للقراءة.

الوِرد اليومي

لفظة غريبة لم تكن مستساغة لدي ولم تصادفني في قراءتي قبل التحاقي بالجماعة، إنه الوِرد بكسر الواو، وهو العبادات والأذكار المحددة التي يقوم بها الفرد كل يوم.

في اجتماعات الأسرة سمعت هذه اللفظة وتعرفت

علـىٰ هـذا المصطلـح وكان هنـاك وِرد يـوزع علينـا، وهـو عبـارة عـن جـدول لبعـض العبـادات مثـل الصـلاة فـي المسـجد، وأذكار الصبـاح والمسـاء، والنوافـل مـن الصلـوات وقيـام الليـل، وصيـام النوافـل مثـل الاثنيـن والخميـس وأيـام التشـريق مـن كل شـهر عربـي، وقـراءة القـرآن. وكل فـرد يضـع علامـة صـح أمـام كل عبـادة يقـوم بهـا. وكل فـرد يسـلم وِرده للمسـئول فـي اجتماعـات الأسـرة. وهـذا الـوِرد يسـاعد علـىٰ رفـع حالـة الالتـزام بيـن أفـراد الجماعـة.

وفـي نهايـة الشـهر الثانـي لـي فـي الجماعـة أصبحـت شـخصاً آخـر فـي كل شـيء. لاحـظ المحيطـون بـي هـذا التغيـر وهـذا الانـزلاق الرهيـب فـي عالـم الجماعـات الإسـلامية، وفـي الأسـرة لـم يملـك الأب والأم المقومـات التـي تسـاعدهما للحيلولـة دون هـذا السـقوط.

رحماء بينهم

إن الخطـأ الرهيـب الـذي وقعت فيـه كل الروايـات والكتب التـي تحدثـت عـن الجماعـات الإسـلامية، وكذلـك وقعـت فيـه كل أنـواع الدرامـا التـي تصـف معاملـة أفـراد الجماعـة فيمـا بينهـم، والعلاقـة المتبادلـة بيـن الأميـر والأفـراد الذيـن يتبعونـه، هـذا الوصـف الـذي يجعـل العلاقـة بيـن أفـراد الجماعـة

جافة وتعتمد على الأوامر المشددة والطاعة العمياء، لكن الحقيقة على النقيض من ذلك تمامًا، فمنذ دخولي الجماعة الإسلامية لم أجد سوى علاقة تربطها المحبة والود والرحمة فيعطف الأمير على الأفراد، والفرد القديم في الجماعة يعامل المستجد فيها بالعطف واللين، ويقع ذلك عندهم في باب تأليف القلوب. فيرى الفرد الجديد علاقة يسودها الحب والرحمة ودليلهم على ذلك قوله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء على الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح:٢٩) فالرحمة هي العلاقة السائدة فيما بينهم.

يقيسون حالهم وحال المجتمع، بحال الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل مع الكفار، ورغم ما في هذا القياس من فساد في التشبيه بين حالهم وحال المسلمين الأوائل.

وهذا ما وجدته عند دخولي الجماعة الإسلامية. وجدت معاملة اللين والاحتواء من الجميع، فهذه المعاملة تعمل على ترسيخ معتقد الحق لدى هذا الفرد الجديد، واليقين بأنه فاز بالفرقة الناجية، وهذه هي بداية تسرب معتقدات الجماعة لدى العقلية الجديدة. ولا يعني هذا أن فكر الجماعة هو الحق، لكننا نسرد حقيقة التعامل فيما بينهم كما رأيته وعايشته.

وكما ذكرنا هذه العلاقة هي من جعلت كل جماعة منغلقة علىٰ نفسها وتجد في التعايش بين أفرادها ما يغنيها عن التعامل مع المجتمع، وعندما يرى أفرادها وصف الآخرين لهم بالجفاء والقسوة والإرهاب يدركون كذبهم، وينسحب هذا التكذيب لكل ما يذكره هؤلاء عن ضلال تلك الجماعات فهم يرون خلاف ذلك وهذا ما نجحت فيه كل الجماعات على خلاف مناهجها.

المهمة

ومن أبجديات العمل الجماعي فقه المهمة، فعندما يتم تكليف الفرد بمهمة ما كبيرة كانت أم صغيرة، لابد أن تمر بهذه المراحل الأربعة.

المرحلة الأولى: سماع المهمة: وهي أن يسمع الفرد الأمر المراد تنفيذه منه، فيسمع وينصت حتىٰ ينتهي من سماع المهمة بأكملها.

المرحلة الثانية: تفهم المهمة: وهي الاستفسار عن كل ما يجول بخاطر الفرد من تساؤلات تخص المهمة حتىٰ يتمكن من تفهمها فهمًا سليمًا.

المرحلة الثالثة: تنفيذ المهمة: وهي أن يقوم الفرد بتنفيذ المهمة كما فهمها من المسؤول.

المرحلة الرابعة والأخيرة: تمام المهمة: وهي إبلاغ المسؤول بتنفيذه للمهمة والانتهاء منها بأي وسيلة يتفق عليها من قبل.

وهذه المراحل تنطبق علىٰ أي مهمة يقوم بها الفرد بداية من تحفيظ القرآن لبعض الأفراد إلىٰ أعمال القتال. والمهمة يكلف بها كل مسؤول من هو دونه، وللجماعة الإسلامية تنظيم هيكلي منظم جدًا.

التنظيم الهيكلي

الجماعة الإسلامية تتبع الهيكل الهرمي في التنظيم بداية من قمة الهرم أمير الجماعة ثم مجلس شورى الجماعة، ثم أمراء المحافظات والمدن حتىٰ نصل لمسؤول الأسرة.

والأسرة هي مجموعة صغيرة من أفراد الجماعة يترأسها فرد وتكون هذه الأسرة متجانسة في السن والتعليم إلىٰ حد كبير.

وفي حلوان كان تنظيمها كالتالي: أمير الجماعة لمنطقة حلوان، ثم مسؤول لكل منطقة، ومسؤول للعمال وآخر للمرحلة الجامعية وآخر للثانوية، ووصل الأمر إلىٰ وجود مسؤول للمرحلة الإعدادية. بالإضافة إلىٰ الأسر كما أسلفنا.

وفائدة هذا النظام هامَّةٌ جدًا للجماعة أولها: أن الفرد لا

يعرف في الغالب غير المسؤول المباشر له والأعلى منه فقط، فتكون السرية مهمة في ذلك. وكذلك سرعة وصول الأوامر والتكليفات من أعلى إلىٰ أسفل، والتقارير من أسفل لأعلى.

وكل مسؤول عليه كتابة التقارير عن أفراده وتصعيدها إلىٰ أعلى ولما بدأت عين أجهزة أمن الدولة تركز علىٰ نشاط هذه الجماعة في حلوان كانت تكتب التقارير بالشفرة، فيرمز للأسرة بحرف كبير وللفرد برقم فلو قلنا ع٣ معناه أن هذا الفرد هو في الأسرة عين ورقمه ثلاثة ويكون لدى المسؤول عن ذلك شفرة باسم هذا الفرد.

الجناح العسكري

وهذا التنظيم السابق خلاف الجناح العسكري، ذلك الجناح المسئول عن العمليات التي تتم تحت مسمى الجهاد وكان الجناح العسكري في البداية يخضع لأوامر الجماعة وأميرها، لكن بمرور الوقت قلَّت سيطرة الجماعة علىٰ هذا الكيان من الجماعة، فبدأ أمراء الجناح العسكري ينفذون الكثير من العمليات دون الرجوع للجماعة، وقد ذكر د. ناجح إبراهيم في أكثر من لقاء تلفزيوني بعد ثورة ٦/٣٠ ما يفيد ذلك.وخير دليل علىٰ ذلك ما قام به الجناح العسكري في مذبحة الأقصر الشهيرة عام١٩٩٧، فقد كانت

هـذه العمليـة محاولـة لإجهـاض مبـادرة نبـذ العنف التـي تبناها أمـراء الجماعـة مـع الدولـة، أو كمـا قيـل بعـد ذلـك: إنهـا تمـت انتقامًـا لمقتـل طالـب فـي الطـب البيطـري بأسـيوط مـات جـراء تعذيـب الأمـن لـه، وأيًـا كان السـبب وراء تلـك الحادثـة التـي هـزت مصـر وقتهـا، وزعزعـت نظـام مبـارك أمـام العالـم أجمـع، لكـن المؤكـد أنهـا تمـت دون علـم مجلـس شـورى الجماعـة الذيـن كانـوا يسـتعدون لطـرح مبـادرة وقـف العنـف.

أدبيات الجماعة وما يخدمها

ومـا زلنـا فـي أسـرة الأعضـاء الجـدد تُصَـب فـي أدمغتنـا أفـكار الجماعـة الإسـلامية، توالـت المفاهيـم التـي رسـخت فـي العقـول، مفاهيـم تخـدم فكـر الجماعـة بدايـة مـن وجـوب العمـل الجماعـي حتـىٰ الجهـاد.

ثـم ظهـر فـي الأفـق بـوادر جديـدة فـي طريقـة شـرح أدبيـات الجماعـة ومـا يخدمهـا مـن مؤلفـات السـابقين، ظهـر مصطلـح المتـون، والمتـن هـو المـادة الأساسـية لبعـض كتـب التـراث، فعلـى سـبيل المثـال فـي النحـو يوجـد متـن الأجروميـة وألفيـة ابـن مالـك، وعلـى هـذه المتـون أقيمـت الشـروح والتفسـيرات والحواشـي وغيرهـا.

اتخـذت الجماعـة فـي تعليمنـا حفـظ المتـون بدايـة مـن

حفظ تحفة الأطفال وهو متن خاص بتجويد القرآن.

وقد كان هذا المتن هو الأساس في تعلم القراءة الصحيحة للقرآن الكريم. كان حفظ هذا المتن في الأسرة الخاصة بالأعضاء ثم انتقل حفظ القرآن وتجويده إلىٰ ما يعرف بالمقرأة سنعرض لها بالتفاصيل. وفي وسط هذه المتون كنا نحفظ أقوال مجتزأة من كتب التراث مثل قول الطحاوي «ولا نُكَفر من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله» هكذا حفظنا هذا المتن وهو من العقيدة الطحاوية لم نر ما قبله وما بعده من أقوال، كان المطلوب منا حفظ هذه المقولة بذاتها. وجاء الشرح لهذه العبارة وافياً جداً لنا، وحسب قول الطحاوي علىٰ محورين:

المحور الأول: شرط التكفير استحلال الذنب، فإن قام أحد بالزنا ولم يقل: إنه حلال فلا يعد صاحب هذا الذنب كافراً، بل هو مسلم قام بارتكاب ذنب وهو كبيرة الزنا.

أما المحور الثاني: هو أن الحاكم استحل عدم الحكم بما أنزل الله ولم يقل بحرمته وعليه فالحاكم كافر، هكذا وصلت إلينا أهم مبررات الجماعة للخروج علىٰ الحاكم واستندوا لقول الحق ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ (المائدة:٤٤) وتوالت الأفكار التي دُست في عقولنا وكان علىٰ رأسها السمع والطاعة.

السمع والطاعة

هو المبدأ الذي تقوم عليه كل الجماعات الإسلامية بشتى صورها، السمع والطاعة استناداً لقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩) لابد للفرد الجديد من اعتناق مبدأ السمع والطاعة، فكيف يتم ترسيخ هذا المفهوم لدى الأفراد الجدد؟ يكون ذلك بثلاثة أشياء:

(١) الدليل الشرعي والتوجيه نحو أن وليَّ الأمر هو أمير الجماعة أو الأمير المباشر للفرد. ونزع ذلك الأمر عن الحاكم الفعلي للبلاد باعتباره كافرًا حسب ما أثبتوه لنا بالأدلة الشرعية. فهذا هو تفسير الآية وتوجيهها لديهم، ثم قول الرسول الكريم «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي..» (رواه البخاري: ٧١٤٢)

(٢) ما رآه الفرد الجديد من السمع والطاعة بين كل مسئول والأفراد الذين يرأسهم. فكيف يسمع ويطيع لأميره، فيرى الفرد الجديد التطبيق العملي لفكرة السمع والطاعة، فيأتي الإيمان بقدسية هذا المبدأ مما يراه متداول بين أفراد الجماعة.

(٣) البيعة: وهو أن يبايع الفرد الجديد أمير الجماعة

علىٰ السمع والطاعة، والبيعة من الأمور التي تستند عليه كل الجماعات علىٰ وجود الأمير ومبايعته.

مررت بهذا كله في المرحلة الأولى لدخولي للجماعة وأصبحت فردًا في الجماعة يسمع ويطيع الأوامر من المسؤول المباشر أو الأمير مهما كانت درجته.

بين موقفين

وقد كنت بلغت درجة الإيمان بمبدأ السمع والطاعة، حتىٰ أنني كنت أستشعر الخوف من الله عند مخالفتي لأي أمر من أوامر المسؤول، وحدث أني عُوقبت ذات مرة علىٰ إهمال أمر ما وكان العقاب أو ما يسمى التعزير، بالمشي من عرب أحمد غنيم حتىٰ منطقة كفر العلو، والمسافة بينهما كبيرة تصل لأكثر من خمسة كيلومترات، وبلغت درجة الخوف من مخالفة المسؤول أني لم أسلك طريقا مختصرا يوفر ثلث المسافة واتخذت الطريق المعتاد وهو الأطول وذلك رغم عدم وجود رقيب علي إلا إيماني بقدسية مبدأ السمع والطاعة، وقِسْ علىٰ ذلك كل التكليفات الصادرة من أمراء الجماعة لمن هم دونهم، هكذا كان إيمان الأفراد بهذه الركيزة الرئيسية للعمل الجماعي في كل الجماعات الإسلامية علىٰ اختلافها. وعندما تكرر موقف

العقاب هذا في الأيام الأخيرة لي في الجماعة الإسلامية، لم أمشِ ولكني ذهبت إلىٰ كفر العلو بالأتوبيس وهكذا عدت إلىٰ عرب غنيم، ولم أشعر ساعتها بأي تأنيب من ضمير حينما أيقنت أنه لا سمع ولا طاعة لهم عليَّ. الفرق بين الموقفين هو إيمانك أو عدمه، هل عقلك تحت السيطرة أم تخلص منها. لو كفر الفرد بأفكار هؤلاء لتركهم، أما إيمانك بفكرهم يستلزم منك الانصياع لهم دائما.

المقرأة والشيخ آدم

رفع درجة الإيمانيات للفرد من أولويات العمل الدعوي للجماعة وخاصة في مرحلة السرية كما كانت حلوان، وكان القرآن الكريم وتلاوته يأتي في المرتبة الثانية بعد أداء فروض الصلاة، وكان تعلم تلاوة القرآن أمرًا هامًّا لكل أفراد الجماعة فكانت المقرأة، والمقرأة: اسم مكان من قرأ، وهي الاجتماع علىٰ قراءة القرآن، وكان موعدها بعد صلاة الفجر في المسجد، وكان للمقرأة فائدة أخرىٰ غير تعليم تلاوة القرآن الكريم ألا وهي المواظبة علىٰ صلاة الفجر في المسجد.

وكانت المقرأة هي السبيل الأول لمعرفة الشيخ آدم وهو كما عرفت فيما بعد أمير الجماعة بمنطقة حلوان.

لا أعلم ما السر الذي ربط هذا الشيخ بشخصية بلال الذي مثله الفنان يحيى شاهين في فيلم بلال مؤذن الرسول فيكاد الشبه أن يتطابق في ذهني بينهما، هل الشبه بينه وبين يحيى شاهين؟ أم لون بشرته الأقرب للسمرة؟

عندما طالعت وجهه لأول مرة أحسست أن هذه الشخصية تحمل مقومات تختلف عن كل من رأيتهم من أفراد الجماعة. بشوش لأبعد حد، يخرج من عينه ذكاءٌ افتقدته في كثير من أفراد الجماعة، يحمل مؤهلًا متوسطًا، لكن عقليته تفوق جامعيين. في المقرأة كان اللقاء الأول بهذه الشخصية.

دقائق معدودة وتنتقل بينك و بين هذا الرجل مشاعر الأبوة والبنوة، خطيب بارع ومفوه لا يماثله أحد من أفراد الجماعة الذين تعاملت معهم، هو أكثر رزانة من الشيخ محمد، ذلك الشيخ الذي استمعت له في اليوم الرياضي وأكثر منه علماً. علىٰ دراية واسعة بعلم التعامل مع الآخرين، لا أعلم إن كان ذلك عن قراءة أم هو شيء فطري في شخصية هذا الرجل.

اللقاء الأول كان كفيلاً بارتباطي بهذا الشيخ. حضر المقرأة في أول يوم لها ثم تركنا لأخ آخر يدعى وليدًا، وكان الشيخ آدم يحضر علىٰ فترات متقطعة.

فـي المقـرأة تعلمـت قـراءة القـرآن وحفـظ آياتـه، فـي المقـرأة كانـت شـخصيتي تتحـول أكثـر وأكثـر نحـو الارتبـاط بالمسـجد وتـرك ملـذات الدنيـا.

كانـت المقـرأة نظامًـا مُتبعًـا فـي عـدة مسـاجد تنظمهـا الجماعـة ويحضرهـا الأقـرب سـكنًا لهـذا المسـجد المقـام فيـه المقـرأة.

ظلـت المقـرأة هـي المحفـز الدائـم لنـا علـىٰ تـلاوة القرآن وحفظـه. ومـن خـلال المقـرأة اقتربـت مـن وليـد وهـو فـي نفـس عمـري تقريبـاً لكنـه أقـدم منـي فـي الالتحـاق بالجماعـة كان يمتـاز بقـدرة كبيـرة علـىٰ النطـق الصحيـح للقـرآن وتلاوتـه وحفظـه فكانـت مخارجـه فـي اللغـة أكثـر إتقانًـا مـن الجميـع وأظنـه الآن قـد تخصـص فـي علـوم اللغـة والنحـو حيـث طالعـت اسـمه علـىٰ أكثـر مـن مؤلَـف فـي النحـو والإمـلاء.

تقاذفتنـي أمـواج كثيـرة كلهـا تأخذنـي نحـو الأعمـاق فصـرت فـي وسـط المحيـط لا أرى إلا مياهًـا مـن كل جانـب. أصبحـت غارقـاً فـي أفـكار الجماعـة وأدبياتهـا المختلفـة، أصبحـت عضـواً مؤمنـاً بأفـكار الجماعـة.

لقـد وقعـت فـي الشـرك فـلا فـرار، وقعـت فيـه وأنـا أحسـب أنـه الحـق ذاتـه لا الحقيقـة النسـبية، وجـاء اليـوم الإسـلامي ليؤكـد لـي ذلـك.

اليوم الإسلامي

كما سبق وتحدثنا عن اليوم الرياضي، كان هناك يوم آخر مميز عند الجماعة، وكان هذا اليوم يقام علىٰ فترات متباعدة وبصورة غير منتظمة علىٰ النقيض من اليوم الرياضي الذي كان يقام كل يوم جمعة بعد صلاة الفجر. وكان يسمى هذا اليوم باليوم الإسلامي. الموعد: بعد صلاة الفجر ذهبنا إلىٰ مسجد في وسط منطقة زراعية في عزبة صغيرة عدد سكانها لا يتعدى العشرات، وكان هذا اليوم أشبه بما يقوم به جماعة التبليغ والدعوة، حيث قضينا اليوم بأكمله في المسجد من بعد صلاة الفجر حتىٰ صلاة العشاء ثم افترقنا.

وكالمعتاد دائماً جاء أفراد الجماعة متفرقين من طرق شتى حتىٰ اجتمعنا في المسجد وكنا نقترب من الخمسين فرداً. بعد وصول أفراد الجماعة، بدأت فعاليات اليوم، في البداية كان هناك درسٌ دينيٌّ، ثم الحديث عن فكر الجماعة الإسلامية، ثم جاءت فقرة ثقافية ومسابقات للترفيه عن الأفراد، ثم درس آخر حتىٰ صلاة الظهر، وفي هذه الأثناء كان هناك أفراد يعدون الطعام في جزء منفصل من المسجد، وبعد صلاة الظهر مُدت المفارش وجاء الأفراد

بالأطعمة المختلفة التي تم طبخها وبدأت الوليمة، وتناول أفراد الجماعة الطعام وتعالت ضحكاتهم وظهر الاندماج الواضح والتآلف بين أفراد الجماعة. كنت أنا وهاني في حالة غريبة من التعجب من هذا المنظر فلم نره من قبل، لكن سرعان ما اندمجنا في هذه الأجواء الاحتفالية. وبعد تناول الطعام أُعلن عن درس ديني يلقيه شيخ زائر ليس من أفراد منطقة حلوان.

جاء الشيخ وكانت تظهر عليه ملامح صعيد مصر، يبدو أنه من أفراد الجماعة بصعيد مصر، فبحكم كوني من أهل الصعيد استطعت أن أحدد أنه من محافظة أسيوط تبعًا للهجته.

تحدث الشيخ عن الجماعة الإسلامية وقوتها وأفرادها، ثم تحدث عن تطور المناطق التي بها نشاط للجماعة الإسلامية وأن لكل منطقة وضعًا خاصًّا بها. ففي صعيد مصر وخاصة في أسيوط والمنيا نشاط الجماعة معلن، وتقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقف وجهاً لوجه ضد الأمن والدولة. وهنا في القاهرة منطقة إمبابة، حيث الدعوة معلنة وأعداد أفراد الجماعة عدة آلاف، وكذلك منطقة عين شمس.

ولكن حلوان مازالت في البداية والدعوة فيها سرية

وعندما تزداد قوتها وعدد أفراد الجماعة بها ستصبح منطقة معلنة. وحثنا الشيخ علىٰ الدعوة وجذب العديد من الأفراد الجدد، ودعا لنا.

أنهى الشيخ درسه وغادر المسجد ولم نعلم اسمه الحقيقي استؤنِفت فعاليات اليوم الإسلامي حتىٰ صلاة العشاء. وبعد الصلاة تفرقنا ولكن هذا اليوم قربنا أكثر وخلق الكثير من أجواء الانتماء للجماعة.

رجعنا أنا وهاني سوياً نتجاذب أطراف الحديث عن اليوم والجماعة ولم نتحدث عن الدراسة والمدرسة كما كنا نفعل من قبل.

وبانتهاء اليوم الإسلامي عرفت طقسًا جديدا من طقوس الجماعة الإسلامية لتقريب الأفراد أو بمصطلحهم الأخوة بعضهم من بعض وزيادة انتمائهم لفكر الجماعة،إنه اليوم الإسلامي.

الاسم الحركي

وفي اليوم الإسلامي عرفت مصطلحًا جديدًا من مصطلحات الجماعة ألا وهو الاسم الحركي وهو اسم بديل للاسم الحقيقي للفرد. وفي الغالب يكون الاسم الحركي لشخص ذي مكانة في الجماعة، والهدف منه تضليل أجهزة

الأمـن، وجعـل اسـمه خفيـاً لا يعلمـه إلا الأفـراد الأعلـى مكانـة فـي الجماعـة.

والشـيخ الـذي حضـر اليـوم الإسـلامي كان أول فـرد أقابلـه فـي الجماعـة لـم أتمكـن مـن معرفـة الاسـم الحقيقـي لـه ولكنـي علمـت اسـمه الحركـي. ويتكـون الاسـم الحركـي فـي الغالـب مـن تركيبـة بذاتهـا مثـل: (أبـو مصعـب المصـري، أبـو صهيـب، أبـو عمـاد القرشـي) وهكـذا. وقـادة الجنـاح العسـكري هـم أكثـر الأفـراد اسـتعمالاً للاسـم الحركـي.

فـي هـذه الليلـة فكـرت أي اسـم حركـي سـأختار عندمـا أصبـح مـن أفـراد الجماعـة الأكثـر أهميـة.

قصص انتصارات أفراد الجماعة

ومـن الأشـياء التـي تـم سـردها فـي اليـوم الإسـلامي هـي قصـص بطـولات أفـراد الجماعة فـي تعاملهـم مع الأمـن، وكذلك قصـص القـوة والنفـوذ فـي المناطـق المعلنـة التـي تظهـر قـوة الجماعـة وأفرادهـا. ومـن تلـك القصـص مـا تـم ذكرهـا لنـا مـن أن أحـد أفـراد الجماعـة كان يقـود دراجـة بخاريـة «موتسـيكل» وطاردتـه سـيارة شـرطة فـي منطقـة ريفيـة وحـاول الهـروب منهـم ووجـد جِسْـرًا بدائيًّـا مصْنوعًـا مـن جـذع نخلـة فـوق ترعـة صغيـرة فمـا كان منـه إلا أن حمـل دراجتـه البخاريـة

وعبر فوق جذع النخلة واستطاع الهرب من الشرطة. عند سماعي لهذه القصة ترددت في عقلي أسئلة كثيرة، كيف استطاع فرد واحد حمل هذا الموتوسيكل ووزنه ثقيل جداً؟ فلم يكن قد ظهر الموتوسيكل الصيني بعد والسؤال الذي طرح نفسه كيف لم يقم أفراد الأمن بإطلاق النيران عليه أثناء هروبه؟ أسئلة كثيرة راودتني تشكك في حبكة القصة وأنا القارئ لكل مؤلفات نبيل فاروق البوليسية.

لكني في النهاية أوكلت ذلك لمعجزة ربانية فهذه كرامة من كرامات العمل في سبيل الله. كما حكى لنا الشيخ الكثير عن المواجهات الدامية بين النظام وأفراد الجماعة، وخاصة ما كان بينهما في مركز ديروط بأسيوط، ديروط ارتبطت كثيرًا بالصراع علىٰ النفوذ بين الداخلية والجماعة في قرى أسيوط وخاصة ما ارتبط منها بالفتنة الطائفية، ومحاربة السياحة، وكان هناك رضوخ متبادل في كثير من الأحداث بين الجماعة والأمن، فقد بلغت الجماعة هناك ذروة قوتها.

من الدعوة السرية إلىٰ مرحلة تغيير المنكر

واليوم الإسلامي الأول لي كان سبيلي الأول لمعرفة سير الدعوة الخاصة بالجماعة. فهي تبدأ بالسرية في الدعوة

وتربيــة الأفــراد تربيــة ســليمة مــن وجهــة نظــر الجماعــة، والتوســع فــي دعــوة المزيــد مــن الأفــراد الجــدد، فالتوســع يكــون أفقيًــا بتجنيــد أفــراد جــدد للجماعــة، ويكــون التوســع رأســيًا بتربيــة الأفــراد تربيــة ســليمة وفــق مناهــج الجماعــة الإســلامية. وعندمــا تصــل الجماعــة فــي هــذه المنطقــة لعــدد معيــن ذي تربيــة إســلامية وفــق مبــادئ الجماعــة عندهــا يتــم الإعــلان عــن نشــاط الجماعــة فــي هــذه المنطقــة فتصبــح منطقــة معلنــة. وهــذا قياســاً علــىٰ بدايــة الدعــوة إلــىٰ الإســلام، فالرســول ﷺ بــدأ دعوتــه ســراً ثــم جهــر بالدعــوة. وهــذا مــا صــارت عليــه الجماعــة فــي عملهــا فــي المناطــق والمــدارس والجامعــات.

وعندمــا يتــم الإعــلان لأي منطقــة تصبــح فــي مواجهــة مباشــرة مــع الأمــن ويصبــح معظــم أفرادهــا معروفيــن لأجهــزة الأمــن. فــي البدايــة يتــم تعطيــل مبــدأ الأمــر بالمعــروف والنهــي عــن المنكــر، ثــم مــع زيــادة نفــوذ الجماعــة تبــدأ فــي تنفيــذ تغييــر المنكــر إلــىٰ أقصــى درجاتــه وهــو التغييــر باليــد.

وحلــوان كانــت فــي مرحلــة الدعــوة الســرية والاحتياطــات الأمنيــة شــديدة جــداً في تحــركات أفــراد الجماعــة واجتماعاتهم. وكان الحــس الأمنــي مــن أســس التربيــة المهمــة لفــرد الجماعــة.

كلمة حق

بائع الكتب الإسلامية كنت أشعر أن كونه تاجرًا أقرب من كونه فردًا من أفراد الجماعة، لم يظهر عليه سَمْتُ الجماعة، ولكن التجارة أصبحت أكثر تأثيراً عليه.

عقب صلاة العصر والمغرب من كل يوم كنت أراه في مساجد بعينها يرص كتبه أمام باب المسجد وبعض زجاجات العطر المحملة برائحة العود والمسك، وقطع منوعة من خشب الأراك المعروف بالسواك، يلتف حوله الكثير من المصلين، بعضهم يشتري زجاجة مسك وآخر يتناول عودًا من السواك وثالث يمسك بكتاب أذكار.

وقفتُ أمام كتبه ينازع قلبي حب القراءة الكامن منذ زمن بداخلي.. وقفت عيني أمام كتاب كلمة حق وعليه صورة الشيخ عمر عبد الرحمن ذلك الشيخ الدكتور في مادة التفسير من جامعة الأزهر والأب الروحي للجماعة الإسلامية ومفتيها. هذا الكتاب صدر عن دار الاعتصام وهو عبارة عن مرافعة الدكتور عمر عبد الرحمن في قضية الجهاد الشهيرة بعد اغتيال الرئيس محمد أنور السادات. أخذت الكتاب وهو الكتاب الوحيد الذي رأيته مطبوعاً ويحمل فكر الجماعة إلىٰ منزلي وكانت ليلتي مع كلمة الحق التي قالها الشيخ عبد الرحمن.

القضية الرئيسية في الكتاب هي مرافعة الشيخ أمام محكمة أمن الدولة. لكن الكتاب حمل الكثير والكثير بداية من السيرة الذاتية للدكتور عمر عبد الرحمن، وقضية الحاكمية، والأدلة والبراهين المؤكدة علىٰ وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى. وتناول الشيخ أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُون﴾ (المائدة:٤٤) و﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُون﴾ (المائدة:٥٠).

ثم جاء الكتاب في الفصل الثاني باتهامات النيابة التي وجهتها للدكتور عمر عبد الرحمن، والفصل الثالث رد الدكتور عمر علىٰ هذه الاتهامات. ومن خلال الاتهامات والرد تم ذكر التحقيقات التي تمت مع معظم أفراد الجماعة وبدأت أقرأ أسماء الرعيل الأول أصحاب الفكرة الأولى للتنظيم.

وقرأت لأول مرة أسماء: كرم زهدي وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة ونبيل عبد المجيد المغربي وطارق الزمر وعبود الزمر وأسامة حافظ وطلعت فؤاد قاسم وناجح إبراهيم ورفاعي طه ومحمد عبد السلام فرج.

ومن خلال التحقيقات عرفت كيف تكونت الجماعة الإسلامية، وكيف نشأت في الجامعات المصرية في

سبعينيات القرن الماضي وكيف نتجت من اندماج مجموعة الصعيد بقيادة كرم زهدي وناجح إبراهيم وأسامة حافظ وغيرهم مع مجموعة محمد عبد السلام فرج مؤلف كتاب الفريضة الغائبة. وأن محمد عبد السلام فرج هو صاحب الآراء الأكثر عنفاً في فكر الجماعة وكتابه خير دليل علىٰ ذلك، وهذا الكتاب هو ما قاده إلىٰ حبل المشنقة كما ذكرنا من قبل.

لم أستطع ترك الكتاب حتىٰ أنهيته في ليلة واحدة ولعل نهمي بالقراءة ساعدني علىٰ ذلك.

هذا الكتاب جعل عقلي يدرك الكثير والكثير عن ظروف نشأة الجماعة ودور الشيخ عمر عبد الرحمن فيها.

ولا أعلم كيف اندمج في ذهني مشهدان في آن واحد، مشهد لثورة ٢٣ يوليو عندما أتى الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب ليرأس حركتهم حيث كانوا كلهم ضباطًا صغارًا في السن والرتبة، والمشهد الثاني هو الجماعة الإسلامية في بدايتها كلهم شباب صغار السن ومعظمهم طلبة في الجامعات أتت بالدكتور عمر عبد الرحمن ليكون أمير الجماعة والمفتي العام لها. وذلك لمكانته كواحد من علماء الأزهر يؤمن بفكر الجهاد، هذه المقارنة ربما يرجع أمرها إلىٰ سببين، الأول: محاولة الاستناد إلىٰ ما يقوي

مركـزه فالضبـاط الأحـرار اسـتندوا للـواء محمـد نجيـب حيـث المكانـة الكبيـرة التـي يحظـى بهـا فـي الجيـش وحـب ضبـاط الجيـش لـه وفـي اعتقـادي أن اختيـار اللـواء محمـد نجيـب هـو مـن أسـباب نجـاح الثـورة. وهـذا مـا حـدث مـع الرعيـل الأول للجماعـة الإسـلامية فهـم شـباب صغيـر السـن لا يمكـن ترويـج دعوتهـم دون الاسـتناد إلـىٰ مـا يدعمهـا فـكان الشـيخ عمـر عبد الرحمـن ذلـك الشـيخ الأزهـري الـذي يعـادي النظـام كثيـرًا. أمـا السـبب الثانـي: هـو سـهولة التخلـص مـن هـذا الرمـز كمـا فعل الضبـاط الأحـرار عندمـا اسـتتب لهـم الأمـر فتخلـوا عـن اللـواء محمـد نجيـب بـل جعلـوه رهـن الإقامـة الجبريـة حتـىٰ وفاتـه فـي ظـروف لا تتماشـى مـع وطنيتـه التـي لا خـلاف عليهـا، وكذلـك فعـل أفـراد الجماعـة فقـد تحـول وجـود الشـيخ عمـر عبـد الرحمـن إلـىٰ أب روحـي للجماعـة وأبعـدوه عـن أسـرارها، وكان مجـرد واجهـة لهـم فهـو الدكتـور الشـيخ العالـم الأزهـري الكفيـف عمـر عبـد الرحمـن. وخيـر دليـل علـىٰ ذلـك أنهـم لـم يسـتفتوه فـي عمليـة اغتيـال السـادات حسـب أقوالهـم فـي أثنـاء المحاكمـة ولكنهـم سـألوه بعـد القيـام بالاغتيـال.

بعـد قـراءة هـذا الكتـاب أصبـح عقلـي أكثـر ازدحامـاً مـن ذي قبـل، الكثيـر مـن الأقـوال والفتـاوى يزاحـم بعضهـا بعضـاً ولا أملـك فـي عقلـي الصغيـر مقومـات التفضيـل بيـن هـذه

الآراء. هـذه الرحلـة مـع كتـاب كلمـة حـق طرحـت الكثيـر والكثيـر مـن الأسـئلة بداخلـي، وهـذا هـو دور القـراءة منـذ اعتيـادي عليهـا. وفـي النهايـة ذهبـت إلـىٰ مـا ذهبـت إليـه الجماعـة مـن قناعـة بفكرهـا.

الشهوة

مرحلـة المراهقـة هـي أشـد مراحـل الإنسـان شـهوة، فـي هـذه المرحلـة يكـون الميـل غريزيـاً للجنـس الآخـر وهـذا مـا جُبـل الإنسـان عليـه، لكـن فـي المقابـل تجـد عنفـوان الشـباب ليخلـق لـه دوراً فـي الحيـاة وتغييـر مـا حولـه. بيـن شـهوة الغريـزة وعنفـوان التغييـر لمـا حولـك، والتمـرد علـىٰ كل مـا هـو سـائد، كان هـذا الشـاب الصغيـر فـي السـن، بيـن لحظـة ينجـح فيهـا الشـيطان فيجعلـه يفكـر فـي شـهوته وبيـن نجاحـه فـي التفكيـر فـي نصـرة الديـن.

كثيـراً مـا كان يتغلـب شـيطاني علـي فـي اسـتراق النظـر وسـماع الأغانـي، لكـن مـا تعلمنـاه مـن الثوابـت بدرجاتهـا يوقـظ بداخلـي إيمانـي الـذي مـا يلبـث أن يعـود إلـي.

لـم نكـن ملائكـة ولـم نكـن شـياطين، كنـا بشـرًا تنازعنـا شـهواتنا وصلواتنـا. كنـا نتعلـم أن هنـاك حـورًا مـن العيـن فـي انتظارنـا ولكـن نتـوق شـوقاً لمعانقـة بنـتٍ مـن بنـات الدنيـا

مـن خـلال زواج شـرعي. لـم يكـن حبنـا للآخرة قـادرًا أن ينسـينا نصيبـاً مـن الدنيـا.

هكـذا حالنـا نحـن أفـراد الجماعـة مـن الشـباب صغيـر السـن والذيـن لـم نتـزوج بعـد، فلـم يكـن مـا ينتظرنـا مـن نعيـم فـي الآخـرة كمـا كنـا نؤمـن سـاعتها بقـادر علـىٰ هجرنـا لنعيـم الأرض.

طه ومريم

فـي السـنة الأولـى لـي داخـل الجماعـة الإسـلامية حدثـت واقعـة طريفـة مازلـت أذكرهـا رغـم مـرور ربـع قـرن مـن الزمـان. قصـة حـب حدثـت لأحـد أفـراد الجماعـة ويدعـى طـه وقـد كان أحـد أفرادهـا الجـدد، وقـد وقـع فـي حـب فتـاة تدعـى مريـم وقـد كانـت قصـة حبـه لتلـك الفتـاة أقـرب للأفـلام الرومانسـية، فقـد هـام بهـا حبـاً وكذلـك بادلتـه هـي الحـب والغـرام، الخطابـات التـي يتـم تبادلهـا عبـر كتـب الدراسـة النظـرات الهائمـة فـي بحـر مـن الشـوق والهيـام، قصـة طـه ومريـم قصـة سـينمائية مـن الطـراز الأول، فحـب بنـت الجيـران قـد تمكـن مـن طـه وكذلـك سـكن طـه فـي سـويداء قلـب مريـم، صـور يتـم الاحتفـاظ بهـا، وخطابـات تقـرأ عشـرات المـرات، فهـل نسـي طـه الحـور العيـن ونسـي نعيـم الآخـرة،

أم أن اللـه خلقنـا لنعيـش فـي الدنيـا حيـاة طبيعيـة ونعـد العـدة للحيـاة فـي الآخـرة . علـم المسـؤولون فـي الجماعـة بهـذه القصـة وحاولـوا إثنـاءه عـن حـب هـذه الفتـاة، وأتـوا لـه بالأدلـة الشـرعية علـىٰ حرمـة الاختـلاط والحديـث بينهمـا دون أن يكـون هنـاك رابـط شـرعي بينهمـا. لكـن حـب صديقنـا لفتاتـه أشـد مـن أدلتهـم، وقـد تعاقـب علـىٰ زيارتـه الكثيـر مـن أفـراد الجماعـة كل واحـد منهـم بـذل قصـارى جهـده فلـم يسـتطع أحـد إقنـاع الشـاب بتـرك حبـه للفتـاة، اتخـذوا سـبيل الترغيـب تـارة بالجنـة والحـور العيـن، وتـارة بالترهيـب والوعيـد مـن عـذاب النـار وجهنـم. وضعـوا أمامـه كل دليـل لديهـم لإثنائـه عـن مقابلـة الفتـاة والحديـث إليهـا، ووضـع هـو أمامهـم دليـلاً فـي غايـة الطرافـة فقـال لهـم: ألا تؤمنـون بالقـرآن؟، قالـوا: بلـى، قـال ألـم تـأتِ سـورة طـه عقـب سـورة مريـم مباشـرة أليـس هـذا دليـلاً علـىٰ إرادة اللـه لهـذا الحـب؟!

كلمـا تذكـرت هـذا الشـاهد الـذي اسـتدل صديقنـا بـه علـىٰ رضـا المولـى عـن قصـة حبـه، غرقـت فـي الضحـك.

اسـتمر صديقنـا فـي قصـة حبـه رغمًـا عـن الجميـع لكنـي لا أعلـم إلـىٰ أيـن انتهـت، هـل تزوجـا أم لا. أرجـو مـن اللـه أن تكـون قصتهمـا كُللـت بالـزواج.

اتقِ الله

هـذه العبـارة كانـت تتكـرر دائمـاً بيـن أفـراد الجماعـة، فكانـت أداة النصـح بيـن الأخـوة فـي الجماعـة الإسـلامية، فـإن رأيـت أخـاك قـد أصـاب ذنبـاً فمـا عليـك إلا قـول: اتـقِ اللـه يـا أخـي. كانـت هـذه الجملـة كفيلـة برجـوع الفـرد إلـىٰ صوابـه فيقـول: اللهـم اجعلنـي مـن المتقيـن.

النصيحـة مـن حقـوق المسـلم علـىٰ المسـلم. وكانـت الجماعـة تحافـظ علـىٰ هـذا الحـق، فالنظـرة الحـرام وسـماع الغنـاء والتكاسـل فـي أداء الفريضـة، والغيبـة والنميمـة والكذب كلهـا ذنـوبٌ تسـتوجب النصـح بيـن الإخـوة، وهكـذا كانـت هـذه الكلمـة أداةً للإصـلاح الذاتـي بيـن الأفـراد، حيـث يُقَـوِّم بعضهـم بعضـا، فالمحافظـة علـىٰ الدرجـة الإيمانيـة محافظـة علـىٰ ارتبـاط الفـرد بالجماعـة.

اتـقِ اللـه يـا أخـي. كلمـة مازلـت أسـمع صداهـا منـذ ربـع قـرن مـن الزمـان.

بعد ليلة ممطرة

كان هـذا الإحسـاس يجعلـك تحلـق فـي عنـان السـماء، عندمـا تشـعر أنـك أديـت مـا عليـك مـن واجبـات الصـلاة

لوقتها، وصلاة النوافل وقيام الليل وصيام السنن. وقراءة القرآن وصلاة الفجر في المسجد بعد ليلة ممطرة والجو بارد والوحل ينال منك في طريقك حتىٰ المسجد، لكن كانت لكل ذلك حلاوة في القلب لا يضاهيها شيء، هل لأن هذه الأشياء لا خلاف فيها وغير مرتبطة بفكر الجماعة الإسلامية ولا تضر أحداً، ولا تختلط بفكرة التعدي علىٰ الآخرين.

نعم إيمانيات الجماعة لم يكن يكدرها شيء. فالصلاة لله والصوم لله وقراءة القرآن لله. وقيام الليل في الهزيع الأخير له عز وجل. أنت إن فعلت كل هذا فعلته من أجل الله وحده.

لكن الحديث عن استخدام القوة والجهاد ضد الدولة والخروج ضد الحاكم تلك أشياء كانت تجد ما يكدرها في نفسي .

يوم من نوع خاص

كما أسلفنا من قبل في حديثنا عن اليوم الرياضي واليوم الإسلامي، كان هناك يوم خاص جداً من أيام الجماعة الإسلامية وفي الحقيقة لم يكن يومًا بل كان ثلاثة أيام متواصلة.

الموعـد بعـد صـلاة الفجـر كالعـادة، المـكان شـقة أحـد الأخـوة المتزوجيـن وقـد أرسـل زوجتـه وأولاده لبيـت آخـر مـع الأخـوات التـي يسـتقر أزواجهـن معنـا. الهـدف مـن التجمـع هـو قضـاء ثلاثـة أيـام فـي هـذه الشـقة، ولـم يكـن كل أفـراد الجماعـة موجوديـن بـل مجموعـة مختـارة منهـم، وذلـك لرفـع معـدل التثقيـف والتربيـة لديهـم.

كان الشـيخ آدم هـو المحاضـر فـي هـذه الأيـام ومعـه الشـيخ محمـد، تناوبَـا خـلال الأيـام الثلاثـة فـي شـرح السـيرة وأدبيـات الجماعـة الإسـلامية، وكذلـك الرقائـق التـي تحـث علـىٰ العبـادة.

وفـي أثنـاء هـذه الأيـام لـم نكـن نخـرج مـن الشـقة وكنـا نصلـي جماعـة واقتربـت إنسـانياً أكثـر مـن الشـيخ آدم، فحكـى قصـة حياتـه وكيـف كانـت نشـأته وطريقـة التزامـه مـن جماعـة إلـىٰ أخـرىٰ حتـىٰ اسـتقرَّ بـه الأمـر فـي الجماعـة الإسـلامية اقتناعـاً بفكرهـا.

الساعة

تطـرق الشـيخ آدم للحديـث عـن أهميـة المداومـة علـىٰ العمـل الصالـح، وتحـدث عـن قولـه ﷺ «أحـب الأعمـال إلـىٰ اللـه أدومهـا وإن قـل» (متفـق عليـه) وحثنـا علـىٰ المداومـة علـىٰ

الطاعـات، والدعـوة إلـىٰ اللـه، ثـم ضـرب مثـلاً بسـاعة حائـط كانـت معلقـة فـي الحجـرة التـي كنـا بهـا، وقـال انظـروا إلـىٰ هـذه السـاعة وانظـروا إلـىٰ عقـرب الثوانـي، إنـه يعمـل طـوال الوقـت يعـد مـرور الوقـت بالثوانـي فيكـون محصلـة عملـه الدقائـق ثـم السـاعات ثـم الأيـام ثـم سـنوات، عملـه قليـل مجـرد ثانيـة مـن الوقـت لكـن دوام هـذا العمـل خلـق السـنوات، يحكـي لنـا الشـيخ ونظـر الجميـع مثبـت علـىٰ عقـرب الثوانـي فـي السـاعة المثبتـة علـىٰ الحائـط، الأعنـاق مشـرئِبَّة والعقـل يربـط بيـن مـا يفعلـه عقـرب الثوانـي والعمـل القليـل الدائـم، العقـرب يتحـرك ببـطء، وفجـأة يقـف عقـرب الثوانـي مكانـه، كل واحـد منـا يكـذب عينيـه فـلا يتكلـم خشـية أن يكـون قـد خدعـه بصـره، ثوانـي أخـرىٰ تمـر دون أن يتحـرك العقـرب الشـيخ آدم يسـكت الصمـت يخيـم علـىٰ المـكان، ثـم ينفجـر الجميـع فـي نوبـة مـن الضحـك، الشـيخ آدم وصاحـب البيـت تبـادلا الحديـث الضاحـك عـن سـبب توقـف العقـرب، حتـىٰ عقـرب الثوانـي يأتـي لـه وقـت ليقـف دون عمـل فقـد فرغـت البطاريـة، ورغـم اسـتحالة هـذه المصادفـة إلا أنهـا حدثـت بالفعـل وكنـت شـاهد عيـان علـىٰ هـذا القصـة، وكنـت أحـد الذيـن اشـرأبت أعناقهـم لتـرى عمـل عقـرب الثوانـي. هـل كانـت هـذه الحادثـة نبـوءة لمـا سـوف تأتـي بـه الأيـام وأتوقـف وأتـرك الجماعـة الإسـلامية.

انتهت الأيام الثلاثة وكأنها دورة مكثفة، خرجنا منها أكثر فهماً واقتناعاً وثقافة بفكر الجماعة. وخرجت محملاً بطاقة إيجابية كبيرة للعمل الدعوي، وأن أنتقل من صف المتلقي إلىٰ الإلقاء. هل أستطيع أن أتحدث عن فكر الجماعة وأقنع الآخر بهذا الفكر ذلك ما سوف تحمله الأيام التالية لهذا الحدث.

اللغة العربية والجماعة

اللغة هي وسيلة التواصل بين البشر، ولا يمكن أن يتم التفاهم بدونها، وللغة العربية مستويات تبدأ باللغة العامية التي تختلف من بلد إلىٰ أخرىٰ، حتىٰ تصل إلىٰ اللغة الفصحى والتي تختلف بدورها من الفصحى البسيطة حتىٰ تصل إلىٰ فصحى الشعر الجاهلي.

والجماعة الإسلامية تربي أفرادها علىٰ استعمال اللغة الفصحى في التخاطب بين أفرادها وإلقاء الخطب والأحاديث، وبالممارسة صار الفرد المتوسط التعليم يتكلم الفصحى بطلاقة.

وفي هذه الفترة كنت أرى أفراداً لم يكملوا تعليمهم الابتدائي، يرفعون الفاعل وينصبون المفعول دون علم لهم بالقواعد النحوية، صارت حركات الإعراب تخرج من

أفواههم بالسليقة، كما كان الحال قبل التنظير لعلم النحو علىٰ يد أبي الأسود الدؤلي. في أحاديثنا داخل الاجتماعات كانت الفصحى هي لغة التواصل، في الخطب المنبرية، والدروس الدينية حتىٰ في حديثنا العادي.

ومن كان رباً لأسرة كان يعوِّد أبناءه علىٰ استخدام الفصحى، فتجد الأب ينادي ابنه يا عبد الرحمن فيرد الصبي الذي لم يتجاوز السابعة نعم أبي، فيرد الأب أحضر الحذاء، فيرد الصغير حاضر أبي، هكذا كان حال لغة التواصل في الجماعة الإسلامية. وظلت هذه الميزة لصيقة بي سنوات طويلة حتىٰ بدأت تختفي رويداً رويداً نتيجة للاختلاط بالمجتمع بعيداً عن الجماعة الإسلامية.

أفغانستان

وقع في يدي في ذلك اليوم تقويم صغير للعام الميلادي الجديد في ناحية منه تقويم الشهور وفي الناحية الأخرى صورة مجاهد من أفغانستان يحمل سلاحًا آليًّا ومكتوب أسفل الصورة نِعمَّ الطريق طريقكم يا أفغان.

وسألت نفسي أي طريق وأي أفغان هؤلاء وبدأت أسأل وبدأت أعرف القصة.

عندما حدث الغزو السوفيتي لأفغانستان في أواخر

عـام ١٩٧٩، ظهـر مـا عـرف بالمجاهديـن الأفغـان الذيـن تبـاروا فـي الدفـاع عـن الإسـلام متمثـلاً فـي أفغانسـتان ضـد العـدوان الغاشـم للسـوفيت الذيـن يمثلـون الكفـار. وتوافـد المجاهـدون مـن مختلـف بقـاع العالـم الإسـلامي للـذَّوْد عـن الإسـلام، وكان لمصـر نصيـب كبيـر ممـا عُـرف بالمجاهديـن العـرب فـي أفغانسـتان وسـافر عـدد مـن أفـراد الجماعـة إلـىٰ أفغانسـتان إلـىٰ هـذه الحـرب المقدسـة حـرب الإسـلام ضـد الكفـر، وكان قـادة الجنـاح العسـكري وأفـراده أكثـر أفـراد الجماعـة التحاقًـا بالمجاهديـن الأفغـان ومنهـم رفاعـي طـه ومصطفـى حمـزة وطلعـت فـؤاد قاسـم وأسـامة رشـدي وغيرهـم.

مئـات الأفـراد مـن الجماعـة الإسـلامية وصلـوا إلـىٰ أرض أفغانسـتان ومعظمهـم عـن طريـق السـفر مـن مصـر إلـىٰ السـعودية ومنهـا إلـىٰ أفغانسـتان ولا أعـرف كيـف وصلـت كل هـذه الأعـداد إلـىٰ هنـاك، دون أن يتفهـم النظـام خطـورة ذلـك فيمـا بعـد.

وانتشـر خبـر شـجاعة أفـراد الجماعـة وقدرتهـم علـىٰ القتـال حيـث إن معظمهـم مـن صعيـد مصـر الذيـن لهـم درايـة كبيـرة باسـتخدام السـلاح وخاصـة مـا يعـرف بالسـلاح الآلـي الكلاشـنكوف الروسـي.

وكانـت لهـم كتيبـة خاصـة بهـم وأصـدروا مـن أفغانسـتان

مجلة المرابطون عن مجاهدي الجماعة في أفغانستان، ووقعت عيني علىٰ أعداد من هذه المجلة. وفي أفغانستان ذاع أمر المجاهدين الأفغان وعُرفت أسماؤهم عبد رب الرسول سياف، أحمد شاه مسعود، قلب الدين حكمتيار وأسامة بن لادن.

عشر سنواتٍ من القتال المستمر واستبسال المجاهدين الأفغان حتىٰ أعلن الاتحاد السوفيتي الانسحاب من أراضي الأفغان.

وقد تربى في هذه الحرب الكثير من أفراد الجماعة علىٰ القتال والعنف وصنع المتفجرات وقد أدى انسحاب السوفيت من أفغانستان إلىٰ قناعة تامة من الجماعة أن التغيير بالقوة هو الحل الأوحد لإقامة الدولة الإسلامية، والسؤال هل قامت الدولة الإسلامية في أفغانستان؟ هذا ما سوف نعرفه لاحقاً.

عبد الله عزام والمجاهدون الأفغان

ومن خلال أخبار المجاهدين الأفغان التي كانت تصل إلىٰ جميع أنحاء العالم الإسلامي كان التعاطف يزداد يوماً بعد يوم، وعدد المجاهدين يزداد يوماً بعد يوم من كافة أرجاء العالم الإسلامي ومسلمي أوروبا.

وأهـم الشـخصيات التـي روجـت للمجاهديـن الأفغـان الشـيخ عبـد اللـه عـزام، فقـد كانـت مؤلفاتـه أشـهر مـا أُلِّـف عـن هـذه الفتـرة وكتابـه آيـات الرحمـن فـي جهـاد الأفغـان خيـر دليـل علـىٰ ذلـك، ولكـن مؤلفاتـه المكتوبـة لـم تكـن هـي المحفـز الأكبـر لنشـر فكـر المجاهديـن وجـذب الكثيريـن للجهـاد فـي أفغانسـتان، بـل مؤلفاتـه الصوتيـة كانـت أكثـر تأثيـراً فانتشـرت التسـجيلات الصوتيـة للشـيخ عبـد اللـه عـزام الأردنـي الجنسـية والفلسـطيني الأصـل. ذلـك المجاهـد الـذي كان لسـان الإعـلام لفكـر الجهـاد الأفغانـي.

وصـل صوتـه إلـىٰ كل شـبر مـن العالـم، تحـدث عـن كرامـات المجاهديـن المختلفـة بدايـة مـن أن أحدهـم ارتـدت الرصاصـة مـن جسـده وكأنـه حائـط فـولاذي. وكيـف أن اللـه تعالـى كان ينصرهـم، والطيـر الـذي كان يحميهـم مـن قذائـف الطائـرة، ووصلـت الكرامـات ببعضهـم أن يمسـك بحفنـة مـن التـراب ويـردد قولـه تعالـى: ﴿وَمَـا رَمَيْـتَ إِذْ رَمَيْـتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَـى﴾ (الأنفـال:١٧) ويلقـي بحفنـة التـراب علـىٰ دبابـة فتوقفهـا.

كان صـوت الشـيخ عبـد اللـه عزام وأحـد مؤسسـي القاعدة مـع أسـامة بـن لادن يرفـع معنويـات المجاهديـن فـي حربهـم ضـد الكفـار ويبـث فيهـم روح القتـال وطلـب الجهاد والشـهادة. كان عبـد اللـه عـزام جهـاز إعـلام متكامـلًا للمجاهديـن الأفغـان،

كان ينشـر أخبـار مواقعهـم مـع السـوفيت، كان صـوت ذلـك الشـيخ بمنزلـة المـؤذن الـذي يقبـل المصلـون للصـلاة بعـد سـماعه، كان المجاهـدون يأتـون مـن كل حـدب علـىٰ نبـرات صـوت عبـد اللـه عـزام.

ماذا بعد انتصار المجاهدين

أمـا تداعيـات انسـحاب السـوفيت مـن أفغانسـتان فهـي كثيـرة أولهـا: نجـاح فكـرة الجهـاد المسـلح علـىٰ فكـرة الدعـوة السـلمية فقـط.

ثانيًـا: عـدم الانتظـار لاسـتكمال العـدة ووجـوب الجهـاد مهمـا كان العـدد والعتـاد. وهـي الفكـرة التـي نـادى بهـا محمد عبـد السـلام فـرج فـي الفريضـة الغائبـة.

بعـد انتهـاء الحـرب وبـدء مرحلـة التأسـيس للخلافـة، حلـم المجاهديـن جميعـاً فـي جميـع بقـاع الأرض، ظهـرت خلافـات كثيـرة بيـن المجاهديـن الأفغـان، سـرعان مـا تحولـت إلـىٰ اقتتـال بينهـم وتنـازع علـىٰ السـلطة، وأدى ذلـك إلـىٰ ظهـور حركـة إسـلامية جديـدة ابتلعـت الحركـة القديمـة فظهـور حركـة طالبـان كان نهايـة مخططًـا لهـا لجيـل المجاهديـن الذيـن حاربـوا السـوفيت. وكأن هنـاك يـدًا خفيـة تتحكـم فـي الموقـف فـي أفغانسـتان.

التسجيلات الصوتية

المسموع أكثر تأثيراً من المقروء، لهذا اهتمت الجماعة في تربية أفرادها علىٰ التسجيلات الصوتية، فكانت هناك مكتبة صوتية ضخمة عند أحد أفراد الجماعة، وكل فرد من أفراد الجماعة يستعير ما شاء منها. والتسجيلات الصوتية تنقسم إلىٰ قسمين رئيسيين، الأول: قسم الرقائق والحث علىٰ العبادة والترغيب والترهيب وهي لشيوخ مشاهير، وأهم هذه الشرائط شهرة في حينه شريط هادم اللذات، وحكم تارك الصلاة، وكان للشيخ محمد حسان تسجيل هام جداً ويعد أشهر تسجيلاته علىٰ الإطلاق وهو شريط وفاة الرسول ﷺ. وانتشر هذا الشريط انتشار النار في الهشيم، ثم كانت شرائط وجدي غنيم وأشهرها شريط العفن الفني الذي يحكي عن عالم الفن، وانتشرت كذلك خطب الشيخ كشك وتسجيلات الشيخ أحمد القطان وكان أشهرها تسجيلًا يتحدث فيه عن تعذيب الأخوة في سوريا، وله تسجيل شهير طريف جدًا يذكر فيه القصيدة المنسوبة للأصمعي (صوت صفير البلبل هيج قلبي الثمل). وغيرها الكثير من التسجيلات الأخرى وأشهر شيوخ تلك المرحلة سعد البريك ومحمد حسان ووجدي غنيم وأحمد قطان والحويني وغيرهم.

أمـا القسـم الثانـي مـن التسـجيلات فهـو يخـص شـيوخ الجماعـة ومعظمهـا يشـرح فكـر الجماعـة والشـبهات علـىٰ فكرهـا والـردود عليهـا، وأشـهرها تسـجيلات الشـيخ عبـد الآخـر حمـاد مفتـي الجماعـة الإسـلامية.

وكان تـداول تسـجيلات النـوع الثانـي تتـم فـي سـرية تامـة بعكـس تسـجيلات القسـم الأول التـي كانـت منتشـرة وتبـاع في كل مـكان للجميـع. وكانـت هـذه التسـجيلات تعـد رافـدًا هامًّـا مـن روافـد التربيـة عنـد الجماعـة الإسـلامية.

الأناشيد الإسلامية

لمـا كان الغنـاء حرامًـا شـرعاً بكافـة صـوره حسـب فكـر الجماعـة الإسـلامية، كان هنـاك بديـل شـرعي لذلـك وهـو الأناشـيد الإسـلامية وهـو نـوع الإنشـاد الـذي لا يصاحبـه آلات موسـيقية.

والهـدف مـن هـذا الإنشـاد الترويـح عـن الأفـراد وبـث الـروح الإيجابيـة فـي نفوسـهم. واشـتهر الكثيـر مـن الأفـراد بعذوبـة صوتهـم فـي أداء الأناشـيد الإسـلامية، وكان منهـم وليـد الـذي كان يبـث فينـا صوتـه الحمـاس، وكان أشـهر تلـك الأناشـيد، ثـوار ذلـك النشـيد الـذي جـاء مـن أرض المقاومـة فـي فلسـطين وأصبـح يمثـل كل ثـورة ضـد الظلـم، ويأتـي

النشـيد الثانـي مكمـلاً لـلأول وهـو نشـيد زغـردي أم الشـهيد، وهـو النشـيد الـذي يبيـن فضـل الشـهيد عنـد اللـه، ثـم يأتـي نشـيد غربـاء.

وانتشـرت عـادة الأناشـيد الإسـلامية فـي كافـة الأفـراح الإسـلامية والأيـام الإسـلامية وغيرهـا مـن الاجتماعـات الخاصـة بأفـراد الجماعـة.

وكانـت ملمحًـا مـن ملامـح الجماعـة الإسـلامية فـي أنحـاء مصـر بأكملهـا. وكانـت إمبابـة أكثـر المناطـق التـي انتشـرت فيهـا مظاهـر الإنشـاد الإسـلامي. وسـيأتي الحديـث عـن إمبابـة فيمـا بعـد.

جمهورية إمبابة والزيارة الأولى

كانـت دائمـاً المثـل الأعلـى لـكل مناطـق الجماعـة الإسـلامية التـي فـي مرحلـة الدعـوة. كنـا نتطلـع نحـن أفـراد الجماعـة فـي حلـوان أن نصبـح مثـل إمبابـة، فأخبـار الجماعـة وأفرادهـا فـي إمبابـة مصـدر فخـر لنـا. كان نشـاطهم الاجتماعي المؤثـر فـي إمبابـة بيـن المواطنيـن يلهـب الحمـاس فـي أن تكـون حلـوان مثـل إمبابـة. مسـجد الرحمـن بإمبابـة وصـلاة الجمعـة وصـلاة التراويـح فـي رمضـان كأنهـا قصـص أسـطورية تُحكـى لنـا. وكل فـرد منـا كان يتمنـى صـلاة الجمعـة فـي هـذا

المسجد الصغير حجماً والكبير اسماً، فمسجد الرحمن في إمبابة أشهر مساجد الجماعة في القاهرة الكبرى.

وترددت أسماء أفراد الجماعة في إمبابة، وكان أشهرهم ليس لمكانته فهو لم يكن الأمير ولكن كان الأشهر لما سُرد عنه من الأساطير، إنه الشيخ جابر، الذي أطلق عليه الإعلام رئيس جمهورية إمبابة بعد القبض عليه.

إنه الطبال الذي انضم إلىٰ الجماعة الإسلامية، ورغم أنه هو شخصياً نفى أنه كان يعمل طبالاً في حديث صحفي في جريدة المصريون بعد ثورة ٢٥يناير، لكن قصة التزامه التي كانت تروى لنا ساعتها تقول إنه كان طبالاً وكيف أنه انتقل من النقيض إلىٰ النقيض.

كان للشيخ جابر كاريزما خاصة، وكان له دور اجتماعي هام في فض المنازعات بين الأهالي وعقد جلسات الصلح العرفي.

وفي أحد الأيام تقرر إرسال مجموعة من أفراد الجماعة لحضور صلاة ظهر الجمعة بمسجد الرحمن بإمبابة، وكنت أنا من ضمن من وقع عليه الاختيار.

في صباح يوم الجمعة ذهبنا إلىٰ إمبابة، كل اثنين من الجماعة سوياً وذلك مراعاة للحس الأمني. وصلت إلىٰ مسجد الرحمن، لم يكن بالمسجد الكبير، لكن كل من كان موجوداً

فيه من أفراد الجماعة الإسلامية، ولما كان وصولنا قبل الصلاة بوقت طويل وجدت بعض أفراد الجماعة بإمبابة يرحبون بنا، وتبادلوا معنا الأحاديث الودية، وفي المسجد كانت هناك مكتبة مليئة بالكتب الدينية وعلى رأسها مجموع الفتاوى الكبرى لابن تيمية ومؤلفات تلميذه ابن قيم الجوزية، وكذلك مؤلفات محمد بن عبد الوهاب، وأبى الأعلى المودودي، وتفاسير عدة وغيرها الكثير من أمهات الكتب.

وكانت علىٰ الحائط مكتبة صوتية تضم خطباً كثيرة لأفراد الجماعة، وكانت خطب شيوخ الجماعة في مسجد الرحمن يتم تسجيلها ونسخها وتوزيعها علىٰ كل المناطق الخاصة بالجماعة.

رُفع الأذان وبدأت الخطبة، شيخ في الأربعينيات من عمره، قوي الصوت، حاضر البديهة اعتلى المنبر وبدأ خطبته. كان يذكر اسم الجماعة الإسلامية دون خوف أو تردد. كان يهاجم النظام بكل قوة. انتهت الخطبة وكنا نريدها أن تستمر دهراً، الانبهار هو السمة المميزة لنا أبناء حلوان فهذه أول مرة لنا في هذا المسجد. تمنينا أن نكون بهذه القوة، وأن تكون حلوان مثل إمبابة. رجعنا إلىٰ حلوان بنفس طريقة ذهابنا إلىٰ إمبابة. ولم يكن رجوعنا مثل ذهابنا، فقد ألهبت هذه الرحلة الحماس

لدينا، وكان لهذه الرحلة أثرٌ فعال في نفوس الأخوة الذين ذهبوا، والذين لم يذهبوا. فمن حضر الصلاة في إمبابة أخذ يسرد ما رآه من قوة لهذه الجماعة في تلك البقعة المسماة بإمبابة فانتقل الحماس للذي لم يحضر وتمنى الحضور في المرات القادمة. كانت هذه زيارتي الأولى لإمبابة، لجمهورية إمبابة. وفي هذا اليوم لم أرَ الشيخ جابر ولكني رأيت جمهورية إمبابة.

المرجعية الفكرية للجماعة الإسلامية

المصدر الأول لفكر الجماعة هو كتب التراث الإسلامي التي تناولت فهم مسألة الحاكمية والجهاد في الإسلام. وعلى رأس تلك الكتب تأتي مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية. وكذلك كتب أئمة الحديث والتفسير وغيرهم، وكذلك كتب المعاصرين نوعاً ما مثل أبي الأعلى المودودي وكتب محمد بن عبد الوهاب وكتب سيد قطب.

وهم من يطلق عليهم العلماء الثقات عندهم كما ورد في الميثاق في الجزء الخاص بفهم الإسلام «نفهم الإسلام بشموله كما فهمه علماء الأئمة الثقات المتبعون لسنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم» (الميثاق).

ففهم الجماعة الإسلامية يكون مرتبطًا بحسب قولهم

بفهم علماء الأئمة الثقات ومن هنا تولدت القدسية حول النقول التي كنا نحفظها عن هؤلاء العلماء. وكانت أقوالهم في فهمهم للإسلام هي المصدر الأهم في فكر الجماعة. فيكفي أن تقول: قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى، أو قال ابن كثير في تفسير كذا. أو قال سيد قطب. فهذا يجعلك تتقبل الأمر في اقتناع تام. كنا نتدارس كتب هؤلاء ونقرأها بما يملأ العقول بالكثير والكثير من فكر هؤلاء العلماء وفهمهم للدين.

ويأتي ابن تيمية علىٰ قائمة العلماء التي أثرت أقوالهم في فكر الجماعة وكنا نحفظ أقواله ومسائله ونحتج به.

ابن تيمية وفكر الجماعة

لم يؤثر عالم من العلماء في فكر الجماعات كما أثر ابن تيمية، ولم يكن لكتاب فعل ذلك كما فعل كتاب مجموع الفتاوى لابن تيمية، ذلك العالم الذي عاصر محنة التتار ووقف ضدهم وأفتى بوجوب قتالهم، إنه ابن تيمية الذي عانى الاضطهاد من الحكام والعلماء في وقته. سُجن مرات ومرات، سُجن في دمشق وفي مصر، حاربه الكثير من العلماء وشككوا في عقيدته المسماة بالعقيدة الواسطية.

وفتاوى ابن تيمية كانت النبع الأول لفكر الجماعات

المؤمنة بوجوب القتال والجهاد في سبيل الله، ووجوب قتال الطائفة الممتنعة، وكانت فتواه الأشهر كانت بخصوص بلدة ماردين بلدة مسلمة واقعة جنوب تركيا التي استولى عليها التتار هل هي دار سلم أم دار كفر؟ فكانت هذه هي الفتوى المعروفة بالدار المركبة، وقد كانت هذه الفتوى هي مرجع جماعات الجهاد في أن مصر تعد دار مركبة بين السلم والكفر. لأن شعبها مسلم والحكم ليس بشرائع الإسلام لقولهم بكفر الحاكم.

ولابن تيمية فتاوى أخرىٰ كانت مرجع هؤلاء للعنف، ليس هذا الكتاب موضعها.

أبو الأعلىٰ المودودي وسيد قطب

لم يتشابه عالمان في الفكر مثل تشابه أبي الأعلىٰ المودودي وسيد قطب. فكتاب أبي الأعلىٰ المودودي «المصطلحات الأربعة في القرآن» أحدث أكبر تأثير في فكر سيد قطب، وقيل: إن المودودي قرأ كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» في ليلة واحدة، وقال عنه: إن ما ورد في هذا الكتاب هو ما أراه بل كأني أنا الذي ألفته.

هذان هما سيد قطب وأبو الأعلىٰ المودودي فكانت كتب الاثنين وأقوالهما تعد التطبيق المعاصر لفكر الجهاد،

مـن مؤلفـات سـيد قطـب التـي كنـا نتداولهـا معالـم فـي الطريـق، وهـذا الديـن، وخصائـص التصـور الإسـلامي ومقوماتـه بالإضافـة إلـىٰ تفسـيره للقـرآن فـي ظـلال القـرآن. ويمتـاز سـيد قطـب بأسـلوبه الأدبـي المميـز ممـا كان يجعلنـي أسـتمتع بالقـراءة فـي مؤلفاتـه المختلفـة. فقـد كان أديبًـا.

ويعـد سـيد قطـب مـن أصحـاب الأدوار الرئيسـية فـي فكـر الجماعـات الإسـلامية . وكذلـك كان أبـو الأعلـىٰ المـودودي المـلاذ الفكـري للجماعـات التـي تنتهـج الجهـاد سـبيلا لهـا. ومـن مؤلفـات المـودودي الحكومـة الإسـلامية وكتـاب الجهـاد وكتـاب منهـاج الانقـلاب الإسـلامي وغيرهـا.

والـكلام عـن سـيد قطـب والمـودودي ومـن قبلهمـا ابـن تيميـة يحتـاج لمتسـع مـن العلـم لسـت أهـلاً لـه.

وكـون الثلاثـي ابـن تيمية وسـيد قطـب والمـودودي المثلث القـوي لفكـر الجماعـات الإسـلامية، وكانـت أفكارهـم تسـري فـي عقـول الجماعـة كمـا يسـري الـدم فـي الوريـد. وأدبيـات الجماعة الإسـلامية مليئـة بالنقـول عـن هـذا المثلـث. وفـي خطـب شـيوخ الجماعـة نجـد أسـماء هـؤلاء تتكرر باسـتمرار.

هكـذا اسـتطاع مؤلفـو أدبيـات الجماعـة وفكرهـا خلـق جـذور تاريخيـة لهـم تمتـد مـن خـلال هـذا المثلـث إلـىٰ عصـر الإسـلام الأول.

الجماعات الأخرى

لم تكن الجماعة الإسلامية وحدها في حلوان بل كانت هناك جماعة الإخوان المسلمين وجماعة الدعوة والتبليغ وأنصار السنة والسلفية.

كانت جماعة الإخوان المسلمين هي المنازع الأقوى للجماعة الإسلامية، لكن الإخوان كانوا أكبر عدداً من الجماعة الإسلامية، والجماعة الأغنى ماديًا، وجماعة الإخوان الأقدم نشأة والأكثر تأثيراً علىٰ مر التاريخ وهي الجماعة الأم التي خرجت منها كل الجماعات الموجودة في مصر.

وتتقارب الجماعتان في معظم أبجديات العمل الجماعي واختلافهما الظاهري في مسألة الخروج على الحاكم والتغيير باليد والجهاد، ورغم ذلك اتضح لي أن هناك جناحًا سريًّا للإخوان خاص بالجهاد ظهر دوره في أوقات كثيرة.

شعار الجماعة الإسلامية

لم يكن شعار الجماعة الإسلامية إلا تعبيرًا وتلخيصاً لكل معتقدات الجماعة، فهو عبارة عن مصحف مفتوح وشمس مشرقة في الخلفية وسيف مرفوع والآية الكريمة

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال:٣٩) وهذا ملخص فكر الجماعة: القرآن رمز للتمسك بالإسلام والسيف رمز الجهاد والآية دليل ذلك والشمس هي رمز للتطلع لغد أفضل بالإسلام.

ومن الطريف أننا كنا نحاجج أفراد جماعة الإخوان بالفرق بين شعار جماعة الإخوان والجماعة الإسلامية حيث إن شعارهم يحتوي علىٰ مصحف مغلق وسيفين مائلين فكنا نقول إن مصحفنا مفتوحٌ وسيفنا مرفوعٌ وكان هذا الحديث في باب التندر بيننا وبينهم، حيث كنا في المدرسة سوياً، في المصنع، في كل مكان. وبعد المراجعات الفكرية اختفى السيف وكذلك آية القتال وكتب عوضًا عنها قوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى:١٣)

لقد اكتمل الفرخ

في هذا الوقت أحسست بأن شخصيتي الجديدة قد اكتملت كما اكتمل الفرخ وأصبح قادراً علىٰ الطيران. فهل أستطيع فعلها؟ هل يمكن أن أبدأ الدعوة لأضم فرداً جديداً للجماعة؟ هل يمكن أن أنسخ أفراداً مثلي؟ هذه الخطوة لا يمكن أن يقوم بها الفرد من تلقاء نفسه، لابد من موافقة المسؤول. هكذا هي البداية أن ترى الجماعة

فيـك القـدرة علـىٰ ذلـك للسـماح لـك للقيـام بـه. قيـل لـي: ابـدأ وكأنهـا طلقـة البدايـة لمسـابقة جـري فـي مضمـار سـباق الفكـر.

البدايـة لابـد مـن اختيـار مـن أقـوم بدعوتهـم لهـذا الفكـر. اختـرت عـدداً مـن الطـلاب فـي الصـف الأول الثانـوي وأنـا فـي الصـف الثانـي، اختـرت خمسـة طـلاب وبـدأت التـودد إليهـم عبـر وجودنـا فـي صـلاة الظهـر فـي المدرسـة، ومـن خـلال شـرح بعـض دروس الرياضيـات لهـم كانـت البدايـة، بخطـوة حتـىٰ يسـمح لـي بالانتقـال للخطـوة الأعلـى.

قـررت اختيـار ثلاثـة أفـراد مـن الخمسـة فهـم الأفضـل مـن حيـث العقليـة والقـدرة علـىٰ تقبـل الالتـزام الدينـي. بـدأت كمـا بـدأ سـيد معنـا منـذ عـام نفـس الخطـوات. قـررت دعـوة الثلاثـة دفعـة واحـدة فـي غضـون شـهر كانـوا علـىٰ اقتنـاع تـام بمـا اقتنعـت بـه أنـا، وفـي غضـون شـهر آخـر كانـوا أفـرادًا فـي أسـرة الجـدد التـي كنـت فيهـا منـذ عـام.

مـا أسـهل الدعـوة لفكـر أنـت مقتنـع بـه، مـا أسـهل غسـل الأدمغـة لـو ملكـت أدوات هـذه المهمـة.

سـلَّمت عـادلًا ومـروانَ وممدوحًـا لمسـؤول أسـرة الجـدد وكانـت هـذه عمليتـي الأولـى وقـد نجحـت فيهـا بامتيـاز.

عفريت ممدوح

لم يكن مسموحاً لي التقربُ من هؤلاء الثلاثة مرة أخرىٰ ولا يحق لي السؤال عنهم. وذلك لكي يرتبط الأفراد الجدد بالجماعة لا بالفرد الذي جندهم.

لكن حادثة غريبة حدثت في صلاة مغرب أحد الأيام جعلتني أسأل، كان الإمام وكان جَهْوريَّ الصوت يقرأ سورة مريم وسمعنا أنينا يأتي من الخلف ثم أصبح صوتاً يصرخ بين المصلين ويعلو الصوت شيئاً فشيئاً. بعد الصلاة عرفت هذه المفاجأة هذا ممدوح الذي جندته مؤخرًا، وعندما سألت المسؤول عنه قال لي: إن ممدوحًا به مس من جان. يا إلهي مس من جان؟! كيف ذلك؟! هل دعوت فرداً ولكن الجان المصاحب له لم يقتنع بما اقتنع به صاحبه؟! وكأنه يرفض فكر جماعتنا. قد تولى الأخوة أمر عفريت ممدوح هذا. وأعترف الآن أني نجحت في دعوة ممدوح لفكر الجماعة ولكني فشلت في دعوة عفريت ممدوح الذي أبى الدخول في جماعتنا وتركها وترك ممدوح وذهب لغير رجعة.

أمن الدولة

بـدأت مباحـث أمـن الدولـة فـي الالتفـات إلـىٰ أعضـاء الجماعـة الإسـلامية فـي حلـوان وبـدأت المضايقـات الأمنيـة لهـم، وبـدأت زيـارات الفجـر للقبـض علـىٰ الإخـوة فـي منازلهم. وتـم القبـض فعليـاً علـىٰ عـدد من الإخـوة وعلى رأسـهم الشـيخ آدم، فـكان لزامـاً علـىٰ الجماعـة أن تفـرض أعلـى درجـات السـرية والتمويـه لحمايـة أفـراد الجماعـة، فالأفـراد المطلـوب القبـض عليهـم واعتقالهـم كانـوا لا يبقـون فـي البيـت وخصوصاً ليـلاً. وكان يـوكل لبعـض الأفـراد مراقبـة مكتـب مباحـث أمـن الدولـة ليـلاً الـذي كان مقـره وقتئـذ فـي شـارع منصـور بحلـوان والاتصـال عنـد تحـرك القـوات للقبـض علـىٰ بعـض الأفـراد عبـر الهاتـف الأرضـي حيـث لـم يكـن المحمـول قـد ظهـر فـي مصـر بعـد. كنـا نراقـب مباحـث أمـن الدولـة وبـدأت المضايقـات الأمنيـة تظهـر بكثـرة وكان هنـاك ضابـط يدعـى عبـد العاطـي أشـهر ضبـاط المكتـب وكان اسـمه معروفـاً للجميـع.

عبد العاطي وليس عبد العاطي

وكان مـن ضمـن أفـراد الجماعـة فـرد بسـيط يُدعـى عبـد العاطـي وكان اسـمه مـادة للتنـدر لاتفاقـه مـع ضابـط أمـن

الدولـة. وكانـت أعظـم حادثـة لهـذا التشـابه القصـة التاليـة:

كان عبـد العاطـي صغير السـن ونشـيطًا وكان ينقـل الأوامر أو مـا يسـمى بالتكليفـات بيـن الأفـراد. وفـي ليلـة كان مطلوبـاً منـه أن ينقـل تكليفـاً هامـاً لأحـد أفـراد الجماعـة وكان الوقـت متأخـراً جـداً فطـرق عبـد العاطـي بـاب شـقته طرقـاً شـديداً، فسـأل الأخ صاحـب الشـقة وكان نائمـا: مـن بالبـاب؟، فأجـاب عبـد العاطـي: أنـا عبـد العاطـي، فظـن صاحـب الشـقة أن مـن بالخـارج هـو ضابـط أمـن الدولـة فأصابـه الرعـب وطلـب مـن أهـل بيتـه أن يسـتتروا. وفتـح البـاب مقتنعـاً بأنـه سـيجد القـوات الخاصـة بالبـاب مشـهرة أسـلحتها فـي وجهـه، وعندمـا وجـد عبـد العاطـي زميلـه فـي الجماعـة الإسـلامية أحـس بقلبـه سـيتوقف. ظنـه عبـد العاطـي وليـس عبـد العاطـي. هـذه قصـة مـن جـراء تشـابه الاسـم.

عندما يأتي المساء

عندمـا أرجـع للبيـت آخـر اليـوم أجدنـي لا أقـاوم التفكيـر فيمـا وصلـت إليـه، هـل هـذه الحيـاة التـي أحياها هـي الصواب أو الأقـرب للصـواب؟ وكلمـا شـعرت بتضييـق الأمـن علينـا أحـس بـأن مـا أقـوم بـه شـيء ضـد القانـون، وإن كان مـع الشـرع بحسـب اعتقـادي لكنـه ضـد الدولـة. هـل حقـاً هـذه الدولـة

كافرة؟ هل ملايين البشر في مصر جانبهم الصواب وأنا قد وقعت علىٰ هذا الصواب؟ أسئلة كثيرة تؤرقني لكني أُسَلِّم العقل لوِرد عباداتي اليومي، قيام الليل أبرزها، العبادة تلقي الهم من فوق كاهلك، العبادة لا شبهة فيها، العبادة لله لا خلاف عليها، لكن هناك علامة استفهام موجودة بداخلي بشأن ما يخص فكر الجماعة. هذا حالي كلما اختليت بنفسي بعيداً عن أفراد الجماعة، أكثر من عام مر علىٰ وجود عقلي بين صفحات فكر الجماعة الإسلامية، أكثر من عام علىٰ وجود صفحات فكر الجماعة بداخل عقلي، أنا في الجماعة والجماعة في عقلي لكن مازالت هناك علامة استفهام تقبع بداخلي، لم تتركني هذه العلامة يومًا ولم تكد تختفي حتىٰ تعود ثانية أقوى من ذي قبل.

من الأسرة إلىٰ الأسرة

هل كانت الأسرة التنظيمية في الجماعة الإسلامية بديلاً عن أسرة الفرد في بيته؟؟ ينتقل الفرد من الأسرة إلىٰ الأسرة. وفي البيت اختلف رد فعل الوالدين فمنهم من كان قاسياً لأبعد حد ومنهم من كان رد فعله مع الجماعة. وفي أسرتي كان رد الفعل شبه محايد فلم ألق ما يبعدني عن المضي في طريق الالتزام بالعمل الجماعي، في بداية

الأمـر كان التزامـي بالصـلاة وقـراءة القـرآن محـط إعجـاب أسـرتي، لكـن مـع مـرور الوقـت وتوغلـي فـي العمـل الجماعـي شـعرت الأسـرة بأنـي فـي طريـق قـد يعصـف بمسـتقبلي، لكـن أيـاً منهـم لـم يكـن ليحـول بينـي وبيـن مـا اختـرت، فعـدم نيلهمـا أي قسـط مـن التعليـم كان المبـرر لـي كونـي علـىٰ الصـواب مهمـا قـالا لـي، هـذا رد فعـل أسـرتي، لكـن لـم يكـن رد الفعـل هـذا فـي باقـي الأسـر. ففـي أسـرة وائـل وفـي أسـرة وليـد كان رد الفعـل مـن أقصـى اليميـن إلـىٰ أقصـى اليسـار. وائـل زميـل لنـا فـي مدرسـة صـلاح سـالم لكنـه كان قوَّامـاً صوامـاً، حاربـه والـدُه كثيـراً مـن أجـل إثنائِـه عـن هـذا الطريـق، بالليـن مـرة وبالعنـف مـرات كثيـرة فلمـا عجـز والـده عـن إقنـاع ولـده بتـرك هـذا الطريـق أبلـغ عنـه مباحـث أمـن الدولـة وطلـب منهـم مسـاعدته ليتـرك ابنـه طريـق الجماعـة الإسـلامية ويعـود كمـا كان.

وفشـل الضابـط فيمـا فشـل فيـه الأب برغـم تهديداتـه لوائـل بالاعتقـال. تعـرض وائـل لعنـف شـديد مـن والـده، اضطر علـىٰ أثـره لتـرك البيـت، وانتقـل بيـن بيـوت أفـراد الجماعـة. وقـد بـات وائـل معـي فـي منزلـي ثـلاث ليـالٍ فـإذا بـه يقـوم أكثـر الليـل فـي صلاتـه، كان محبـاً للصيـام والقيـام قليـل الأكل والـكلام كثيـر الذكـر.

بعد فترة استطاع والد وائل نقله من المدرسة وانتقلت الأسرة بأكملها لبلدتهم بالوجه البحري وانقطعت صلتي بوائل ولم أعد أسمع عنه شيئاً فهل ترك فكر الجماعة أم مازال؟ لا أعلم، لكنه ظل في مخيلتي علىٰ صورته الأخيرة كلما تذكرته صائمًا بالنهار قائماً يصلي بالليل.

أما أسرة وليد فكان رد فعلها علىٰ النقيض من ذلك، فأسرته مكونة من أربعة ذكور وأخت صغيرة بالإضافة للأب والأم.

الأخوة الأربعة كانوا من أنشط أفراد الجماعة علىٰ اختلاف أعمارهم ما بين المرحلة الجامعية حتىٰ المرحلة الإعدادية. أما الأب فكان محباً للجماعة الإسلامية وشيوخها وكذلك الأم. وكان بيت وليد مركزاً لتجمع أفراد الجماعة فهو بيت مثالي لذلك. وقد كثرت زيارات الأفراد لمنزل وليد حتىٰ صدرت أوامر بعدم الذهاب لبيت وليد وذلك مراعاة للاحتياطات الأمنية.

ما بين وائل ووليد كان الاختلاف. ومن أسرة إلىٰ أسرة تباينت ردود الفعل. وأسرة الجماعة كانت الأقوى تأثيراً من أسرة البيت.

الزيارة الثانية إلىٰ إمبابة

في توقيت حرج تم اختيار بعض الأفراد للصلاة في إمبابة، الموعد صلاة المغرب وفي الشارع الرئيسي بالقرب من مسجد الرحمن كان بالمكان جموع غفيرة من أعضاء الجماعة بعد صلاة المغرب بدأت فاعليات الاحتفال بالخطب والأناشيد ورأيت لأول مرة الشيخ جابر، وكان هذا الاحتفال يمثل استعراضًا للقوة. والوقوف ضد الدولة وأنظمتها. أحسست في هذه الزيارة بالعزة وأننا قادرون علىٰ مواجهة الدولة. إمبابة أصبحت المنطقة الأقوى علىٰ مستوى القاهرة الكبرى ويليها منطقة عين شمس ومسجد آدم مسجدها الأشهر.

كانت هذه الزيارة قمة المنحنى اليقيني لدي فقد أحسست أن النهاية قد اقتربت ولكن أي نهاية، هل هي إقامة الدولة التي تحكمها الجماعة؟ أم ماذا؟

التفلت

التفلت لفظ يطلق علىٰ ترك الفرد لفكر الجماعة، أو ترك الالتزام كلية، ويبذل المسؤول مجهودًا لاستعادة الفرد الذي يوشك علىٰ ترك الجماعة، وإن أصبح أمر رجوعه

أمـرًا مسـتبعدًا يصبـح هـذا الفـرد خـارج نطـاق المنظومـة وعنـد ذلـك يتـم اتخـاذ الآتـي: عـدم الحديـث مطلقـاً أو فـي أضيـق الحـدود مـع هـذا الفـرد وعـدم ذكـر أي شـيء يخـص التنظيـم أمـام هـذا الفـرد وكذلـك يدخـل الفـرد التـارك للجماعـة فـي الدائـرة الحمـراء، فعندمـا يتـم القبـض علـىٰ أي فـرد مـن أفـراد الجماعـة الإسـلامية ويتـم تضيـق الخنـاق عليـه ليذكـر أسـماء مـن يعرفهـم مـن أفـراد الجماعـة يكـون هـؤلاء الأفـراد التاركـون للجماعـة هـم الضحيـة. والحجـة فـي ذلـك أن دخولهـم المعتقـلات والسـجون يجعلهـم يعـودون مـرة أخـرىٰ إلـىٰ فكـر الجماعـة.

وظاهـرة التفلـت قائمـة فـي كل الجماعـات الإسـلامية هنـاك أفـراد يتركـون العمـل الجماعـي إمـا لعـدم اقتنـاع أو للخـوف مـن الملاحقـات الأمنيـة أو للانتقـال لجماعـات أخـرىٰ. وكانـت هـذه القضيـة بالغـة الأهميـة ويتـم التعامـل معهـا بمنتهـى الحـرص.

وكان مسـؤول الأسـرة يتابـع أفـراد أسـرته ويعمـل علـىٰ تقويـة صلتهـم بالجماعـة وزيـادة الروابـط بيـن الفـرد وفكـر الجماعـة ويحـرص كذلـك علـىٰ رفـع إيمانياتهـم باسـتمرار.

واحد علىٰ ثلاثين

من أين تأتي الأموال لأفراد الجماعة في حلوان، هل يأتيهم تمويل من الخارج؟ لا، فاحتياجات الجماعة في فترة الدعوة لا تحتاج إلىٰ أموال كثيرة فكان هناك التمويل الذاتي للجماعة ومن مصادره تبرع الأفراد فكل فرد يعمل عليه دفع ما يعادل يوم واحد في الشهر أي بنسبة واحد علىٰ ثلاثين. وهناك مصادر أخرىٰ مثل بيع الشرائط والكتب وكذلك الأدوات المدرسية في مواسم بدء العام المدرسي. وكان هناك ميزانية لتلك الموارد وطرق صرفها. وكانت الزكاة التي يدفعها أفراد الجماعة من تلك الموارد ولم يكن مسموحاً بجمع الزكاة من غير أفراد الجماعة.

مصادر تمويل الجماعة

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه من أين يأتي تمويل الجماعة الإسلامية، بالإضافة للمصادر التي ذكرناها سابقًا، كانت هناك مصادر أخرىٰ كثيرة ولكنها لا ترقى لمصادر تمويل جماعة الإخوان، فالجماعة الإسلامية فقيرة الموارد وهذا ما جعلها تأخذ دور التابع لجماعة الإخوان بعد ثورة يناير ٢٠١١، وذلك لما وفرته لها جماعة الإخوان من

أموال ذهب معظمها لأصحاب الأدوار الرئيسية في الجماعة الإسلامية. وفي الماضي نتيجة فقر الموارد للجماعة الإسلامية وافتقارها للتمويل الخارجي جعل ولاة أمورها وخاصة في الجناح العسكري يستحلون أموال النصارى، فحدثت أمور فظيعة نتيجة لذلك منها قتل بعض أقباط الصعيد، والسطو علىٰ محلات الذهب. وكانت هذه الأموال تستغل في عمليات الجناح العسكري.

لم يكن أعضاء الجماعة بنفس فكر الإخوان الذين تكونت لهم امبراطوريات اقتصادية بالمليارات. فقد اقتصر نشاط الجماعة الإسلامية علىٰ بعض المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر التي لا تدر ربحًا يذكر لهذا الكيان.

ونستطيع أن نقول: إن الجماعة لا تمتلك فكرًا اقتصاديًا يخدم أغراضها في الدعوة والجهاد.

صلاة العيد

كانت صلاة العيد من المراسم الهامة التي تؤكد سطوة الجماعة وقوتها. فكان إعداد مكان الصلاة والعملية التنظيمية من الأشياء الهامة للجماعة وتبدأ مراسم هذا التنظيم من الساعة العاشرة مساء يوم الوقفة حتىٰ موعد الصلاة، أمور كثيرة من تجهيز للمكان وفرشه وتعليق

مكبـرات الصـوت وخلافـه وفـي نفـس اللحظـة كان هنـاك تأميـن للمـكان وهـو أمـر هـام جـدًا وكانـت مباحـث أمـن الدولـة الخطـر الأوحـد حينهـا.

وكان هنـاك مجموعـة تأميـن أخـرىٰ تراقـب مكتـب أمـن الدولـة بحلـوان الـذي كان موجـودًا فـي شـارع منصـور حتـىٰ ثـورة ينايـر.

تبـدأ مراسـم الصـلاة، أفـراد الجماعـة وأسـرهم يأتـون مـن كل مناطـق حلـوان، والكثيـر مـن سـكان المنطقـة، يبـدأ الأفـراد فـي التكبيـر عبـر مكبـرات الصـوت قبـل موعـد الصـلاة بوقـت كبيـر ثـم ينـادي الخطيـب للصـلاة وبعدهـا خطبـة العيـد، الفـرح يعـم الجميـع يقـوم بعـض أفـراد الجماعـة بتوزيـع التمـر والحلـوى علـىٰ الكبـار والأطفـال. ونجـاح تنظيـم صـلاة العيـد يعـد نجاحًـا للجماعـة فـي المنطقـة.

المجموعة الثقافية

فـي تطـور ملحـوظ تلقينـا تكليفًـا بإنشـاء ثـلاث مجموعات لرفـع معـدلات التثقيـف والوعـي والعمـل الاجتماعـي لـدى أفـراد الجماعـة، فكانـت هنـاك المجموعـة الثقافيـة بالإضافـة إلـى مجموعـة سياسـية ومجموعـة ثالثـة اجتماعيـة تعمـل مثـل وزارة شـؤون اجتماعيـة مصغـرة. تـم تكليـف بعـض الأفـراد

بتنفيذ الفكرة وكُلفت بإنشاء المجموعة الثقافية، ووضع تصورٍ كاملٍ لها، فوافق هذا رغبة في نفسي. فوضعت تصوراً لها من خلال ما يشبه دورات ثقافية للأفراد لرفع معدل وعيهم وثقافتهم، وكان من ضمن التصور إصدار مجلة ثقافية أطلقْت اسم الصحوة عليها، وأصدرْت منها عدة أعداد كانت توزع على الأفراد لقراءتها في اجتماعات الأسر وغيرها.

نالت المجلة رضا أفراد الجماعة جميعاً، ثم جاءت مادة العدد الجديد.. فكانت بداية لمرحلة جديدة.

بداية الشك

اخترت موضوعاً للقضية الرئيسية في المجلة وكان الموضوع مَعنِيًّا بفترة الحمل عند المرأة: أقل مدة للحمل وأطول مدة من خلال النظرة الدينية للموضوع. فكان لزاماً عليَّ الرجوع لكتب التراث والتفاسير. فوجدت ما أخذ عقلي أخذاً، بالنسبة لأقل مدة للحمل فلا نكاد نجد اختلافاً فيها وهي ستة أشهر بحسب القصة الشهيرة لسيدنا عمر وعلي وهي استدلال سيدنا علي عن أن أقصر مدة للحمل ستة أشهر من خلال قوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة: ٢٣٣) وقوله تعالى:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥) فحولان وستة أشهر ثلاثون شهرًا؛ فلا رجم على المرأة التي ولدت لستة أشهر.

أما أطول مدة فكان هناك أقوال كثيرة ما بين سنتين إلى خمس سنوات وهذا كله ثابت في كتب التراث والتفاسير وقد أنكر ابن حزم صحة كل هذه الآراء حيث قال «لا يجوز أن يكون الحمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقل من ستة أشهر» وأرجع ذلك لقوله تعالى ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥)، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ...﴾ (البقرة: ٢٣٣)

وجدت هذه الآراء في كتب التراث التي كنت أقدس كل ما فيها. أين الحقيقة؟ وهل يمكن أن تأتي امرأة بعد وفاة زوجها بخمس سنوات بمولود وتنسبه إلى زوجها، فهل يعقل ذلك؟ هذه القراءة في هذه المسألة جعلتني أبحث في بعض كتب الطب، ولم تكن مصادر المعرفة حينها بالسهولة التي هي عليها الآن، فلم أجد سوى مكتبة حلوان العامة التي كانت تقع عند الحديقة اليابانية، في المكتبة وجدت بعض كتب الطب التي كانت تتحدث عن الحمل وفتراته، ولم أرَ قولًا يذكر طول فترة الحمل أكثر من تسعة أشهر إلا بفترة وجيزة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع.

صدر العدد من المجلة والشك بدأ يجعل علامة الاستفهام التي بداخلي تكبر وتضاف إليها علامة تعجب كبيرة.

إن هذه الكتب ليست مقدسة وهناك الكثير من المغالطات بها. ذهبت بسؤالي هذا إلى أحد شيوخ الجماعة فقال لي: إن بعض الإسرائيليات قد وصلت إلى كتب التراث. فسألت ما هي الإسرائيليات؟ قال: هي الأخبار التي كان يحفظها أحبار بني إسرائيل فلما دخل بعضهم الإسلام بدأ في رواية هذه الأخبار والقصص والحكايات وتناثرت في كثير من كتب التراث. كلام هذا الشيخ يدل على أن هؤلاء بشر مثلنا، وليسوا أنبياء. في هذا اليوم كانت بداية رحلة الشك في كل شيء قد بلغت اليقين فيه. وسألت نفسي هل مصطلح الثقات الذي تعلمناه عن هؤلاء العلماء سيظل صامداً بداخلي؟

التعزير

التنظيم قائم على الانضباط. وطريقة التعامل مع من يخالف هذا التنظيم من أفراد الجماعة هي العقاب أو ما يطلق عليه التعزير، ويختلف التعزير أو العقوبة تبعاً لنوع المخالفة. فلو لم ينتظم الفرد في صلاة الفجر يكون عقابه مثلاً بصلاة الفجر في مسجد بعيد عن منزله. ويمكن أن

يكـون التعزيـر لزيـادة الطاعـة فمثـلاً التعزيـر بالقيـام ليـلاً بجـزء كامـل مـن القـرآن أو ختـم القـرآن كلـه فـي مـدة كـذا، وتـارة أخـرىٰ يكـون العقـاب بدنـي بـأن يمشـي الفـرد مسـافة كـذا كيلـو متـر علـى الأقـدام كمـا ذكرنـا سـابقًا. لكـن التعزيـر النفسـي كان أقسـاها وهـذا مـا حـدث معـي.

حبس انفرادي

عندمـا بـدأ الشـك يضـع بداخلـي علاماتـه بـدأت فـي التخلـف عـن كثيـر مـن مناسـبات الجماعـة واجتماعاتهـا، فـكان العقـاب الأكبـر لـي وهـو التعزيـر بالمكـوث فـي البيـت أسـبوعين والخـروج للصـلاة فقـط فقـد كنـا فـي وقـت الإجـازة الصيفيـة وألا أكلـم أحـدًا مـن أفـراد الجماعـة طيلـة الأسـبوعين. لـم يكـن عقابـاً بالنسـبة لـي بـل كان فتـرة لأعيـد حسـابات كثيـرة قـد اختلطـت بداخلـي، أسـبوعين مـن التفكيـر المسـتمر لـم يقطـع هـذا التفكيـر غيـر خروجـي للصـلاة، لقـد كنـت سـعيداً بهـذا العقـاب. أيـام تمـر والأسـئلة بداخلـي تـزداد وتكثـر علامـات الاسـتفهام والتعجـب حتـىٰ حلـت محـل اليقيـن الـذي كان بداخلـي فأصبـح كل شـيء قابـلًا للنقـاش مـرة أخـرىٰ.

انتهـت فتـرة التعزيـر وقـد أصبحـت بـلا يقيـن ورجعـت ثانيـة للمربـع صفـر.

التكفير في مقابل التفكير

الفكـر هـو أرقـى مـا خصنـا اللـه تعالـى بـه دون باقـي مخلوقاتـه يمتـاز بنـو آدم بنعمـة الفكـر. والفكـر يقـود لفكـرة تؤمـن بهـا وتعمـل علـى نشـرها بالفكـر فقـط دون العنـف والقوة، فالفكـرة القويـة تصـل إلـى الجميـع دون الحاجـة لأداة مسـاعدة غيـر الكلمـة، والمفكـرون فـي كل عصـر صفـوة هـذا العصـر. وأفكارهـم تبقـى بعدهـم بقـدر قوتهـا. هـذا مـا كنـت مؤمنـاً بـه منـذ بدايـة تشـكيل شـخصيتي الأولـى ودخولـي للجماعـة كان بنـاءً علـى اقتناعـي بفكرهـم، لكـن الجهـاد والتغييـر باليـد كان تسـويغه لـدي أنـه للـذَّود عـن هـذه الفكـرة. فالقـوة للدفـاع وليسـت لنشـر الفكـرة وهـذا القـول كان يتكـرر لـدى شـيوخ الجماعـة بأنهـم لـم يبـدؤوا بالعنـف بـل كان للدفـاع عـن الجماعـة وأفرادهـا.

لكـن الجماعـة وغيرهـا مـن جماعـات العنـف كانـت تملـك سـلاحاً مـن نـوع خـاص وهـو التكفيـر، فـكان سـلاحهم ضـد مـن خالفهـم فـي التفكيـر.

ظهـر ذلـك فـي عـدة فتـاوى مـن علمـاء الجماعـات المختلفـة. فقـد أُفْتِـيَ بتكفيـر عـدد مـن المفكرين علـى فترات متباعـدة منهـم المفكـر والدكتـور نصـر أبـو زيـد، والدكتـور فـرج فـودة، وصاحـب نوبـل الكاتـب نجيـب محفـوظ وغيرهـم.

كل هـؤلاء أُفْتِـيَ بكفرهـم لأسـباب مختلفـة، فنجيـب محفـوظ لروايتـه الأكثـر جـدلاً أولاد حارتنـا حيـث أشـارت فتواهـم بـأن هـذه الروايـة بهـا إسـقاطات علـى الـذات الإلهيـة. أمـا نصـر أبـو زيـد وفـرج فـودة جـاءت الفتـوة بكفرهـم لمهاجمتهـم لفكـر هـذه الجماعـات. وكانـت هـذه الفتـاوى تعنـي أن نؤمـن بكفـر هـؤلاء، لكـن هـل قرأنـا أعمالهـم؟ بالطبـع لا، غيـر بعـض النقـول المجتـزأة مـن سـياقها للاسـتدلال علـى كفـر هـؤلاء.

لمـاذا لـم يُـرَدّ علـى هـؤلاء المفكريـن بالفكـر ذاتـه فتكون الحجـة بالحجـة، لكـن تكفيرهـم كان ضـد تفكيرهم.

اغتيال فرج فودة

عُـرف المفكـر فـرج فـودة بمعاداتـه للجماعـات الإسـلامية، وكان كتابـه الحقيقـة الغائبـة رداً علـى كتـاب الجماعة الإسـلامية الفريضـة الغائبـة المواجهـة الأكبـر بينـه وبيـن الجماعـة الإسـلامية. فشـجع ذلـك علمـاء الجماعـة بالإفتـاء بتكفيـره وبهـذا أعطـت الجماعـة الإشـارة بإباحـة دمـه وقتلـه، ومـن مؤلفـات فـودة أيضـاً قبـل السـقوط والنذيـر. وقـف فـرج فـودة بقلمـه ضـد أفـكار هـذه الجماعـات لكـن الحـدث الأهـم الـذي كان بمثابـة المسـمار الأخيـر فـي نعـش هـذا المفكـر تلـك المناظـرة التـي أقيمـت فـي الأول مـن يونيـو١٩٩٢ فـي معـرض

الكتاب تحت عنوان «مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية» وكان الجانب الأول يمثله الشيخ محمد الغزالي ومأمون الهضيبي المتحدث باسم الإخوان في ذلك الوقت ومعهم الدكتور محمد عمارة والجبهة الأخرى مكونة من الدكتور فرج فودة والدكتور محمد أحمد خلف الله، وأدار هذه المناظرة الدكتور سمير سرحان وقيل إنه قد حضرها ما يزيد على ثلاثين ألف شخص في القاعة وخارجها.

دماء مقابل أحبار

وبعد هذه المناظرة بأسبوع واحد فقط تم اغتيال الدكتور فرج فودة، اليوم هو الثامن من يونيو١٩٩٢، المكان أمام العقار الذي به مكتب الدكتور فرج فودة. وقف اثنان هما عبد الشافي أحمد محمد رمضان ٢٦عاماً بائع سمك وأشرف السيد إبراهيم صالح أعمال حرة، فور خروج الدكتور فرج فودة أمطروه بوابل من الرصاص، قُتل فرج فودة وأصيب ابنه وصديقه وحيد رأفت زكي. ولم يكن القاتل قد قرأ كلمة واحدة لفرج فودة. قتله لمجرد أن قيل: له اقتله ! وهكذا بدأت علامة الاستفهام التي بداخلي تزداد علامة أخرىٰ كلما تذكرت هذه القصة وعلامة التعجب تزداد علامة تعجب أخرىٰ.

نجيب محفوظ وطعنة التكفير

رغم حدوث هذه الحادثة في أكتوبر١٩٩٥ أي بعد تركي للجماعة الإسلامية لكني سردتها هنا للعلاقة بينها وبين اغتيال الدكتور فرج فودة.

اتُّهِم نجيب محفوظ بالكفر المُخرج من الملة بسبب روايته أولاد حارتنا. وإذا رجعنا للوراء إلى خمسينيات القرن المنصرم لوجدنا الحرب التي قامت من أجل عدم نشر هذه الرواية حتىٰ يتم إيقاف نشرها من خلال جريدة الأهرام على أجزاء. لكن الرواية طبعت في بيروت عن دار الآداب عام ١٩٦٢، ورغم منع دخولها إلى مصر إلا أن نسخاً كثيرة قد تحدت هذا المنع ودخلت مصر، وظلت تهمة الكفر لصيقة بالأديب نجيب محفوظ. حتىٰ جاءت سنة١٩٩٥ وتم تنفيذ الحكم على صاحب نوبل، لأنه كافر لابد من قتله.

إنه محمد ناجي محمد مصطفى فني إصلاح الأجهزة الإلكترونية. ذلك الشاب الذي حُشِيَ رأسه بأفكار الجماعة، وقيل له: نجيب محفوظ كافر ويجب قتله، انتظره أمام منزله بالعجوزة، وعندما استقل السيارة قام بغرس سكين في رقبته وهرب، وعندما وصل لأفراد جماعته بعين شمس وعرفوا بالأمر، استقبلوه بالأحضان وتهنئته: مبارك، مبارك.

هكذا أراد هذا الشاب كسر قلم نجيب محفوظ ونجح في جعل يده غير قادرة على الكتابة من جراء الحادثة، لكن أبداً لم يسكت أدبه فقد كان يملي على الآخرين أعماله بعد خروجه من المستشفى. واعترف هذا الشاب بعدم قراءته لأي عمل من أعمال نجيب محفوظ، كل ما فعل بناءً على فتوى الجماعة بكفر نجيب محفوظ.

من العجيب أن نجيب محفوظ قال: إنه قد سامح من قام بطعنه فلا ذنب له والذنب ذنب من حَشَوْا رأسه بأفكارهم.

هكذا كان نجيب محفوظ سمحاً لأبعد حد لدرجة أنه لم يدخل في خصام مع كل من حاربوا أدبه على مر حياته كلها.

هكذا كانت فكرة الاغتيال سائدة عند الجماعة الإسلامية. حتىٰ وصل إلى مسامعي من بعض أفراد الجماعة أن هناك بحثاً لشيخ من شيوخ الجماعة بعنوان الإرهاب فرض والاغتيال سُنة.

الإرهاب فرض والاغتيال سُنة

هكذا كان التنظير لهذا المفهوم لدى الجماعة وقد استمعت لخطبة لطلعت فؤاد قاسم كان يتحدث فيها عن الأدلة والبراهين على أن الإرهاب فرض وأن الاغتيال سُنة عن نبيه الكريم.

نعم لقد ترسَّخ هذا المبدأ في عقول أفراد الجماعة الإسلامية. ومن أهم أدلتهم على فرضية الإرهاب قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ (الأنفال:٦٠) هذا دليلهم على أن الإرهاب فرض وأما عن دليلهم على كون الاغتيال سنة فهو ما روي عن إرسال النبي ﷺ لعبد الله بن أنيس لقتل خالد بن سفيان الهذلي لأنه جمع مجموعة من قبيلته لقتل الرسول الكريم والحديث في مسند الإمام أحمد سنذكره في موضع قادم في هذا الكتاب.

الشيماء

الحلقة تضيق أكثر وأكثر، والضربات الأمنية المتلاحقة تجاه أعضاء الجماعة اعتقال وتصفية جسدية وتعذيب، جعل الجماعة تبادل الداخلية عنفاً بعنف، الجماعة تبحث عن رد الاعتبار بعملية قوية تكسر الحلقة القوية هذه. الاختيار: رئيس الوزراء عاطف صدقي، المكان: بالقرب من مدرسة المقريزي الخاصة بمنشية البكري، الزمان: صباح يوم ٢٥نوفمبر عام١٩٩٣، الوسيلة التفجير عن بعد لكمية متفجرات تزن ١٠كيلو جرامات.

عندما اقترب موكب رئيس الوزراء من مكان القنبلة ضغط الشخص المنتظر على زر التفجير، لحظة وتغير المكان، جزء من المدرسة تهدم وتساقط زجاج النوافذ، الأتربة والغبار تملآن المكان، حالة من الهلع تنتاب الجميع وفي هذه اللحظة تسقط الصغيرة شيماء محمد عبد الحليم ذات الثلاثة عشر عاماً، الدماء تنزف منها بغزارة، حاول المدرسون تهدئة الطلاب، قام أحد المدرسين بحمل الطفلة شيماء إلى مستشفى منشية البكري القريبة. ماتت شيماء ولسان حالها يقول لماذا قُتِلْتُ؟ بأي ذنب يحكم عليَّ بالاغتيال؟

والغريب أن موكب رئيس الوزراء لم يتأثر بالقنبلة ونجا من الحادث. وكأن الجماعة فعلت ما فعلت من أجل قتل شيماء فقط. هل كانت شيماء تمثل خطراً على أفراد الجماعة؟

سألت أحد مشايخ الجماعة بعد فترة من الحادث ما ذنب شيماء؟ قال الشيخ: تُبعث على نيتها! أي يترك أمرها وإلى الجنة أم النار مصيرها إلى الله تعالى. هذه فتواهم ومعتقدهم فيمن يُقتل من الأبرياء في حوادث التفجيرات التي يقومون بها. ماذا نقول لو قالت إسرائيل مثل هذا القول في ضحايا مدرسة بحر البقر الشهيرة ماذا سيكون ردهم؟

الحـادث أسـاء للجماعـة أكثـر وأكثـر، وجعـل أجهـزة الدولـة أكثـر عنفـاً معهـم، ولقـد أصـاب تلاميـذ هـذه المدرسـة صدمـة كبيـرة جـراء هـذا العمـل وحتـى هـذه اللحظـة نجـد أثـر ذلـك علـى كل مـن كان حاضـرًا منهـم فـي المدرسـة فـي ذلـك الوقـت.

كان اغتيـال شـيماء الدافـع الأكبـر لقـراري تـرك الجماعـة الإسـلامية. قـررت تـرك الجماعـة نهائيـاً ولكـن متـى سـيكون تنفيـذ هـذا القـرار اليـوم أم غـداً؟ ذلـك هـو السـؤال.

زلزال وزلزال

وقبـل حـادث اغتيـال الشـيماء بعـام تقريبًـا فـي الثانـي عشـر مـن سـبتمبر سـنة١٩٩٢ السـاعة الثالثـة وتسـع دقائـق عصـراً، المـكان فـي المنـزل القديـم الـذي تقيـم فيـه أسـرتي أختـي الكبـرى عندنـا فـي البيـت هـي وأولادهـا طلبـت منهـا أن تصنـع لـي كوبـاً مـن الشـاي لأنـي أحـب رائحـة الشـاي الـذي تصنعـه، لقـد كانـت بعـد أن تصـب الشـاي تضـع قليـلاً مـن الشـاي الجـاف فـوق الشـاي المصبـوب، فتصنـع لـه نكهـة جميلـة ورائحـة زكيـة، أستنشـقها وأنـا أتنـاول كـوب الشـاي الخـاص بـي. عندمـا طلبـت منهـا أن تصنـع لـي كوبـاً مـن الشـاي طلبـت هـي أن أحمـل ابنتهـا الصغيـرة التـي لـم يتجـاوز عمرهـا ثلاثـة شـهور،

أخـذت الصغيـرة وبـدأت فـي مداعبتهـا. وخرجـت مـن الشـقة وأنـا أداعبهـا حتـىٰ لا تبكـي لحيـن انتهـاء أختـي مـن صنـع الشـاي. عندمـا وقفـت علـى السـلم أحسسـت أن السـلم ينتفـض، وسـمعت صـوت صـراخ مـن الشـقة الـكل يصـرخ البيت يقـع هذا هـو مـا جـال فـي خاطـري حينهـا، فهـذا المنـزل قديـم، درجـات تفصلنـي عـن الشـقة ودرجـات تفصلنـي عـن بـاب البيـت وكنـا نسـكن فـي الـدور الثانـي. بحركـة لا إراديـة منـى أخـذتُ الصغيرة وخرجـتُ مـن بـاب البيـت، وقلـت فـي نفسـي أعطـي الصغيـرة لأي أحـد مـن الجيـران مـن خـارج البيـت وأرجـع لأسـاعد البقيـة فـي الخـروج، خرجـت إلـى الشـارع، كل الجيـران فـي الشـارع هـل خرجـوا لمسـاعدتنا قبـل أن ينقـض البيـت علينـا. الأمـر أكبـر مـن ذلـك، الصـراخ يخـرج مـن كل بيـت، هـل كل المنـازل آيلـة للسـقوط؟ سـمعت لفظـة زلـزال مـن أحـد الجيـران، نعـم إنـه زلـزال، تركـت الصغيـرة مـع أحـد الجيـران ودخلـت للبيـت مسـرعاً كل ذلـك تـم فـي ثـوانٍ محـدودة، الأسـرة كلهـا نزلـت إلـى الـدور الأول، همـوا بالخـروج فـإذا بجـزءٍ مـن جـدار الـدور الأخيـر يسـقط أمـام بـاب البيـت، صرخـت فيهـم: انتظـروا وبعـد أن وقـع حائـط الـدور الأخيـر بالمنـزل أخرجتهـم، يـا إلهـي لقـد أصبحنـا فـي الشـارع، نظـرت فـإذا بـكل سـكان الشـارع فـي الشـارع، إنـه أول زلـزال أراه فـي حياتـي ولعلـه الأخيـر بهـذه القـوة، هـذا

الزلـزال الـذي برهـن لـي أننـا لـم نكـن يومًـا نسـتطيع مواجهـة الزلــزال. بــدأت وســائل الإعــلام تذيــع خبــر الزلــزال، وبــدأت الدولـة تصنـع مـا يسـمى غرفـة عمليـات لمتابعـة الأزمـة، ولأن الحكومـة لـم تكـن تعـرف كيـف تتعامـل مـع مثـل هـذه الأزمـة، تـاه الشـعب وضاعـت حقـوق الكثيـر ممـن تهدمـت مسـاكنهم، نشـرات الأخبـار بـدأت تعـرض صـور المنـازل المهدمـة والأنقـاض فـي كل مـكان. وتصريحـات المسـؤولين عـن الجهـد المبـذول لمواجهـة تلـك الأزمـة. والأخبـار والبرامـج ركـزت علـى حـادث أكثـم ذلـك الشـاب الـذي خـرج بعـد ثلاثـة أيـام حيًـا مـن تحـت الأنقـاض دون أسـرته. أمـا علـى المسـتوى الشـخصي فلـم تسـتطع الأسـرة الرجـوع مـرة أخـرىٰ للبيـت مخافـة انهيـاره وأقامـت عنـد خالـي. هـل هـذا الزلـزال الـذي صنـع ملاييـن الشـروخ فـي مبانـي القاهـرة الكبـرى هـو مـا صنـع بداخلـي هـذا الشـرخ الـذي أشـعر بـه داخـل نفسـي وعقلـي وقلبـي؟ ذلـك الشـرخ بيـن الواقـع الـذي نعيشـه نحـن أفـراد الجماعـة الإسـلامية فـي مجتمـع خيالي صنعنـاه بعقولنـا وأفكارنـا ذلـك المجتمـع الـذي تبنـى نظامـاً خاصًـا بـه دون بقيـة البشـر ليـس هـذا فقـط بـل أطلقنـا علـى مـا نحـن فيـه الحقيقـة المطلقـة، وغيرنـا يعيـش فـي الضـلال وكلمـة السـر فـي ذلـك الدليـل، إنـه الدليـل مـن القـرآن والسـنة. أي دليل هـذا؟ هـل اتفقـت كل كتـب التـراث علـى هـذه الحقيقـة؟! أم

أننا انتقينا من هذا التراث الضخم ما نريده منه دون سواه. الزلزال على أرض الواقع أسقط مسَلَّماتٍ كثيرة كنا نؤمن بها. أسرة صغيرة كانت تؤمن أن الأب هو حمايتهم من ملمات الزمان، وهو الشخص الوحيد الذي يضحي بحياته من أجلهم وهو راضٍ، فإذا بالزلزال يفضح أمره ويقفز الأب من شقته من الدور الثاني تاركاً زوجته وأولاده لمصيرهم المجهول، وكأنه يقول لهم: نفسي نفسي. فعرفت أسرته أنهم كانوا يعيشون في وهم كبير. وتلك المرأة التي كان زوجها يتغزل في وصف كبريائها وشرفها، عندما زلزلت الأرض من تحتها وهي عارية في الحمام إذ بها تخرج مسرعةً إلى الشارع كما ولدتها أمها، ألم تسمع بالنسوة اللاتي مِتْنَ حرقاً في حمام النساء، ولم يخرجن للشارع هرباً من الحريق حتىٰ قيل فيهم مثلاً يقال حتىٰ الآن «اللي اختشوا ماتوا» وهذا مدحٌ لخلقهن وما فعلن لا ذمٌّ لهن كما يظن البعض.

الزلزال لم يصدع المباني وحدها بل صدع الكثير من الثوابت بداخلنا. وهكذا كان زلزال١٩٩٢ زلزالًا في نفسي أكبر من الزلزال الذي كان في الواقع.

كل شيء يستحق المراجعة، لا مسلَّمات إلا ما اتفق عليه أئمة الإسلام لا قدسية لفرد بعينه، ولا اتفاق كامل ومسلم به مع كلام فرد إلا رسول الله ﷺ.

هدم النص وبناء النص

النص بناء له أركان يُبْنَى عليها، والنص هنا أقصد به كل نص كتبه بشر، هو نص قابل للبناء ومن ثم الهدم، ولكي أقرب لك الصورة أكثر سأقص عليك قصة قرأتها أو ربما سمعتها عندما كنت صغيرًا: كان في زمن بعيد ملك وكان هذا الملك يحلم كل ليلة بحلم واحد، نفس الحلم، كان الملك يحلم بأن كل أسنانه قد تساقطت ولم يبق في فمه من أسنانه شيء، طلب الملك كل مفسري الأحلام وطلب منهم تفسيرًا لهذا الحلم الذي يؤرقه كل ليلة، أجمع المفسرون أن الحلم معناه أن الملك سيشهد وفاة كل أفراد أسرته أمام عينيه، الأبناء والأحفاد وكل أسرته، غضب الملك وانتابه الحزن وأمر بحبس جميع مفسري الأحلام، وأمر بإحضار حكيم القرية وهو رجل عجوز فقير، وقص عليه الحلم وطلب منه تفسيرًا، تبسم الحكيم وقال: أبشر يا مولاي، ستعيش عمراً مديدًا حتىٰ إن عمرك سيتجاوز كل أعمار عائلتك ستصبح أطولهم عمراً، فرح الملك وتبسم وأمر بجائزة كبيرة للحكيم. إن حلم الملك نص من النصوص شاهده مفسرو الأحلام من ناحية واحدة فكان وصفهم تبعاً لهذه النظرة، بينما الحكيم وحده شاهد النص من

ناحيـة مخالفـة تمامـاً، مـع العلـم أن قـول الحكيـم وتفسـيره للحلـم هـو نفـس تفسـير مفسـري الأحـلام، لكنـه رأى الجانـب الإيجابـي مـن الحلـم بينمـا هـم ذكـروا الجانـب السـلبي مـن الحلـم وهـو كقولـك: نصـف الكـوب فـارغ وقـول آخـر: نصفـه ممتلـئ، كيـف نبنـي النـص؟ وكيـف نهدمـه؟ ثـم نعيـد بنـاءه؟ هـل مـا يـراه أحدنـا فـي النـص هـو الحقيقـة المطلقـة، أم أن للنـص حقائـق أخـرىٰ مغايـرة تبعـاً لهـدم النـص وبنائـه، هنـاك قصـة أخـرىٰ قرأتهـا: المؤلـف الكبيـر أمسـك ورقـة وقلمًـا وأخـذ يكتـب: فـي العـام الماضـي أجريـت عمليـة إزالـة المـرارة ولازمـت الفـراش عـدة شـهور، وبلغـت السـتين مـن العمـر فتركـت وظيفتـي فـي دار النشـر التـي ظللـت بهـا ثلاثيـن عامًـا، وتوفـي والـدي، ورسـب ابنـي فـي بكالوريـوس كليـة الطـب لتعطلـه عـن الدراسـة عـدة شـهور بسـبب إصابتـه فـي حـادث سـيارة وفـي نهايـة الصفحـة كتـب: يـا لهـا مـن سـنة سـيئة!. ودخلـت زوجتـه غرفـة مكتبـه، ولاحظت شـروده فاقتربـت منه، ومـن فـوق كتفـه قـرأت مـا كتـب فتركـت الغرفـة بهـدوء، دونَ أن تقـول شـيئاً، لكنهـا بعـد عـدة دقائـق عـادت وقـد أمسـكت بيدهـا ورقـة أخـرىٰ، وضعتهـا بهـدوء بجـوار الورقـة التـي سـبق أن كتبهـا زوجهـا فتنـاول الـزوج ورقـة زوجتـه وقـرأ منهـا: فـي السـنة الماضيـة شُـفِيت مـن آلام المـرارة التـي عذبتـك سـنوات

طويلة، وبلغت الستين وأنت في تمام الصحة، وستتفرغ للكتابة والتأليف بعد أن تعاقدت على نشر أكثر من كتاب مهم، وعاش والدك حتىٰ بلغ الخامسة والثمانين من غير أن يسبب لأحد أي متاعب وتوفي في هدوء من غير أن يتألم، ونجا ابنك من الموت في حادث السيارة وشُفي بلا أيَّة عاهات أو مضاعفات، وختمت الزوجة عبارتها قائلة: يا لها من سنة أكرمنا الله بها، وانتهت بكل خير، الحمد لله على كل شيء، لاحظ نفس الأحداث لكن بنظرة مختلفة، دائمًا يرى الإنسان الأشياء كما يحب أن يراها لا كما هي في الحقيقة. فهل نحن نرى النصوص كما نحب أن نراها، لا كما هي في الحقيقة؟ أنت عندما ترى شخصًا قادمًا في الطريق سيراه شخصٌ من الناحية الأخرى وهو مغادر، فهو مقبلٌ مدبرٌ معًا. وهنا أتذكر مقالًا لي بعنوان حسن الظن بالله، وقد نشر على موقع اليوم السابع منذ مدة طويلة:

حسن الظن

رزقنا الله مالاً كثيراً، جاء بعد شهرٍ من العمل الجاد الدؤوب، فقد أتممت كتابي الأول، أعطيت المال لزوجتي وقلت لها، ادخري هذا المال لعله ينفعنا، لم تمر ساعات على أخذ زوجتي للمال حتىٰ عانت ابنتي الصغرى من

ألـم شـديد ببطنهـا، ذهبـت بهـا إلـى أحـد الأطبـاء مسـرعاً، فطلـب منـي بعـض الأشـعة والتحاليـل وبعـد أن قمـت بهـا، رجعـت مسـرعاً للطبيـب وابنتـي تتلـوى مـن شـدة الألـم. تفحـص الطبيـب الأشـعة ونظـر للتحاليـل، ثـم أخبرنـي بـأن ابنتـي تعانـي مـن الزائـدة الدوديـة ولابـد مـن عمليـة بأسـرع وقـت، أخبرتـه بالموافقـة وقـام الطبيـب بالعمليـة، وتماثلـت ابنتـي للشـفاء، وجلسـت أنـا وزوجتـي بجـوار ابنتـي وقالـت زوجتـي لـي والدمـع يترقـق فـي عينيهـا: لـم يـأتِ لنـا مـالٌ كثيـرٌ إلا وأتـت معـه مصيبـة تأخـذه، وفـي حالـة عـدم وجـوده لا نعانـي مـن شـيء، نظـرت إليهـا وإلـى دموعهـا قائـلاً: هـل هـذا ظنـك باللـه تعالـى؟ فهـل رزقنـا اللـه ثـم يسـبب لنـا مـا يأخـذ بـه رزقـه؟ اعلمـي يـا زوجتـي الحبيبـة أن الأمـر عكـس ذلـك، فقـد تأخـرت المصيبـة بأمـر اللـه تعالـى حتـىٰ نملـك مـا نواجـه بـه تلـك المصيبـة، إن رحمـة ربـك بنـا أنـه يرسـل لنـا مـدداً نواجـه بـه قضـاءه، فـلا نحتـاج لسـواه، فأطرقـت زوجتـي رأسـها فـي تفهـمٍ لمـا أراده اللـه.

ومـن سـاعتها عندمـا يأتينـا مـالٌ وفيـرٌ، تقـول زوجتـي لـي مبتسـمة: لقـد أرسـل اللـه لنـا مـدداً نواجـه بـه قضـاءه.

هكـذا حسـن الظـن باللـه، فهـو لـم يخلقنـا ليعذبنـا فـي هـذه الحيـاة، هـو سـبحانه وتعالـى أرحـم بعبـده مـن الأم

بوليدها. أحسنوا الظن بقضاء الله، لم يخلق سبحانه عباده ليعذب بعضهم بعضاً، خلقهم لطاعته، خلقهم لنشر المحبة فيما بينهم. إن ما يصيبنا من ابتلاءات، ليختبر إيماننا به فقد جعل للشوكة التي يشاكها الإنسان أجرًا فيغفر بها ذنوبه، أهنالك أرحم من ذلك؟

يحكي صديق لي عن قصة حدثت معه في أحد أيام الدراسة وكان وقت الامتحانات، تأخر عن موعد الأتوبيس الذي يقلهم من منطقتهم حتىٰ الجامعة، تأخر فلم يلحق بالامتحان إلا بعد خمس دقائق من بداية اللجنة، دخل لجنته متذمراً لتأخره، فإذا به لم يجد زملاءه الذين يستقلون الأتوبيس معه، دخل اللجنة وبدأ في إجابة الامتحان وهو شارد الذهن، ما سبب تأخرهم عن الامتحان؟ ولماذا لم يأتوا حتىٰ الآن؟ وبعد نهاية اللجنة علم أن الأتوبيس اصطدم بشجرة ونُقل كل ركابه للمستشفى، عندها قال صديقي الحمد لله على تأخري. هكذا حالنا إذا علمنا الحكمة فيما يقضيه المولى عز وجل ولكن كيف الحال فيما لا نعلم الحكمة من وراءه. أحسن الظن بالله سواء علمت حكمته من قضائه أم لم تعلم. اللهم إني أتقبل قضاءك بنفسٍ راضية، اللهم لك الحمد في السراء والضراء. انتهى المقال

مـن كل مـا سـبقه ومـن غيـره الكثيـر والكثيـر مـن أقـوال السـابقين نـرى قـول الشـافعي رضـي اللـه عنـه (قولـي صحيـح يحتمـل الخطـأ وقـول غيـري خطـأ يحتمـل الصـواب) الشـافعي يقـول هـذا الـكلام وهـو أحـد الأئمـة الأربعـة، الإمـام الشـافعي صاحـب الحافظـة الغريبـة عـن قـدرات البشـر لا يدعـي امتلاكه للحقيقـة المطلقـة بـل يقـول: إن قولـه يحتمل الصـواب والخطأ، فكيـف يدعـي البعـض أنـه هـو صاحـب الحقيقـة المطلقـة وأن جماعتـه هـي الفرقـة الناجيـة الوحيـدة دون الفـرق الأخـرى. هـل تلـك النصـوص التـي انتقيتهـا مـن ملاييـن الصفحـات فـي كتـب التـراث الإسـلامي هـي الحقيقـة المطلقـة؟ وهـل عالِـم واحـد يكـون إليـه المرجـع دون سـواه؟ وهـل فهـم أحدهـم للنـص يكـون هـو مـا نعـول عليـه فـي حياتنـا كلهـا؟ إنـه أمـر بالـغ الخطـورة، تعـالَ صديقـي القـارئ نرجـع للنـص الأول وصاحـب التفسـير المعتمـد لهـذا النـص وهـو الرسـول الكريـم عليـه السـلام. الرسـول ﷺ جـاء بالحقيقـة المطلقـة إنـه القـرآن الكريـم ﴿وَبِالْحَـقِّ أَنزَلْنَـاهُ وَبِالْحَـقِّ نَـزَلَ﴾ (الإسـراء:١٠٥) وفسـره الرسـول بسـنته الكريمـة تفسـيراً لا يحتمـل الخطـأ لأنـه ﴿وَمَـا يَنطِـقُ عَـنِ الْهَـوَى﴾ (النجـم:٣)

بعـد وفاتـه ﷺ أُغلـق كتـاب الحقيقـة المطلقـة وبـدأت الاختلافـات بيـن الصحابـة ثـم بيـن التابعيـن حتـىٰ اتسـعت

الاختلافات بين العلماء وكان الأئمة الأربعة مثالاً واضحًا على ذلك. أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل أربعة أئمة اعترفوا بالحقيقة المطلقة لثوابت هذا الدين تلك الحقيقة التي توقفت بوفاة الرسول الكريم، ثم جاءت الاختلافات والحقيقة النسبية فهل كل آراء أبي حنيفة التي خالفت آراء باقي الأئمة هي الصواب دون آرائهم؟ أم أن آراء مالك أو الشافعي أو ابن حنبل هي الصواب؟ أم أن كل واحد منهم قال الحقيقة ولكنها الحقيقة النسبية؟ أم أن لكل واحد من هؤلاء الأئمة آراء صائبة وأخرى خاطئة حسب ما وصل إليه من الأدلة والنصوص والأحاديث النبوية الصحيحة؟

لم نسمع قول أحد الأئمة بتكفير الباقين. بل على النقيض تماماً كان هؤلاء الأئمة يجل كل منهم سابقيه.

لكن ما حدث من أتباع هؤلاء الأئمة هو ما جعل هناك خصومة في بعض الفترات من التاريخ حتىٰ وصل الأمر أن تقام الصلاة في الأزهر الشريف بأربعة أئمة لكل مذهب إمام خاص بهم، وذلك في فترة من الفترات.

من الناحية النظرية استحالة الاستسلام العقلي لشخص بعينه على أنه هو صاحب الحقيقة المطلقة «كل يأخذ منه ويرد إلا صاحب هذا المقام، وهو النبي ﷺ»

إن مـا حـدث فـي المراجعـة الفكريـة لتلـك الجماعـة خيـر دليـل علـى ذلـك، فـي البدايـة تـم التسـليم العقلـي لبعـض البشـر علـى أنهـم يحملـون الحقيقـة المطلقـة فـي فهـم النصـوص واسـتنباط الأحـكام دون غيرهـم، فعنـد حركـة المراجعـة الفكريـة التـي قامـت بهـا الجماعـة الإسـلامية قـد تغيـر فهـم نفـس النصـوص ذاتهـا، وهـذا مـا يؤكـد مـا قلنـا بـه مـن هـدم النـص وبنائـه مجـددًا بفهـم جديـد.

ابـن تيميـة ذلـك العالـم الـذي عاصـر أخطـر العصـور التـي هـددت الإسـلام، عصـر التتـار وهجماتـه الشرسـة علـى بلـدان الإسـلام، لذلـك اهتـم ابـن تيميـة بفقـه الجهـاد واتخـذ منهجًـا أكثـر صرامـة مـن منهـج ابـن حنبـل نفسـه، حيـث كان ابـن تيميـة ينتمـي للمذهـب الحنبلـي. هـل يمكـن أن نفهـم نصـوص ابـن تيميـة للجهـاد دون الأخـذ فـي الاعتبـار بالمؤثرات التاريخيـة التـي كانـت تحيـط بابـن تيميـة.

تكلـم ابـن تيميـة فـي الجهـاد ومعظـم فتاويـه فـي الجهـاد كانـت متشـددة وذلـك لأنـه كان يتحـدث عـن حالـة تاريخيـة يعيشـها. فكيـف نسـلم بأقـوال شـخص واحـد فـي كل مـا يقولـه فـي مسـائل بعينهـا ثـم البحـث فـي التـراث عـن كل مـا يؤكـد مـا ذهـب إليـه ابـن تيميـة.

هنـاك فـرق كبيـر بيـن أن تتبنـى رأيًـا بعينـه ثـم تبحـث

عـن كل مـا يؤكـد رأيـك الـذي ذهبـت إليـه، بعكـس البحـث عـن حقيقـة مـا، فأنـت تقـارن بيـن الآراء وترجـح أحدهـا بغيـر تغليـب للهـوى فـي هـذا الترجيـح.

وكذلـك يجـب التسـليم بأنـه لا تسـليم لشـخص بأنـه هـو الأحـق بالاتبـاع دون غيـره، فيجـب نـزع القدسـية المطلقـة عـن هـؤلاء العلمـاء علـى مـر العصـور المختلفـة. والعلمـاء القدامـى قـد أخـذوا بذلـك، فـلا تجدهـم فـي عصـر مـن العصـور أعطـوا هـذه القدسـية لأحدهـم، فالعلـم يـدور بيـن الجميـع، والـكل يُؤخـذ منـه ويـرد إلا النبـي ﷺ.

وسـيد قطـب ذلـك الشـخص الـذي تحـول مـن الأدب والشـعر إلـى التصنيـف فـي الفكـر الإسـلامي، وأصبـح صاحـب رؤيـة تبنتهـا معظـم الجماعـات التـي تنتهـج منهـج العنـف.

سـيد قطـب الـذي امتـزج فكـره مـع أبـي الأعلـى المـودودي فأثَّـرا فـي فكـر كل الجماعـات. والسـؤال الـذي كان يراودنـي بيـن الحيـن والآخـر: لـو ظـل سـيد قطـب فـي دائـرة الأدب والشـعر ولـم يظهـر أبـو الأعلـى المـودودي بفكـره، هـل وجـدت تلـك الجماعـات ذلـك المسـوغ لـكل مـا اقترفتـه هـذه الجماعـات مـن عنـف؟

كيـف لنـا أن نجعلهمـا أصحـاب الحقيقـة المطلقـة دون المعاصريـن لهمـا والسـابقين كذلـك؟ كيـف نسـلم عقولنـا

لهـؤلاء دون مناقشـة أو اطـلاع علـى أفـكار باقـي علماء الإسـلام؟

لا يمكـن أن يحمـل شـخص مثـل عبـد السـلام فـرج صاحب الفريضـة الغائبـة دون غيـره سـر فكـر الجهـاد في الإسـلام.

لا مسـلَّمات مـن الآن إلا مـا اتفـق عليـه علمـاء الأمـة، ولْنَقـرأْ للجميـع دون تحيـز، ولنجعـل العقـل يميـز لنـا أيـن هـي الحقيقـة.

ولنرجـع لابـن تيميـة وكتابـه مجمـوع الفتـاوى ذلـك الكتاب الـذي تـم انتقـاء معظـم أدبيـات الجماعـات الإسـلامية منه.

الانتقـاء هـو مبـدأ هـؤلاء، أن تقـول وتتبنـى الفكـرة، أي فكـرة ثـم تبحـث فـي كتـب التـراث عـن كل قـول يؤيـد الفكـرة التـي اخترتهـا. هـذا كمـا حـدث فـي أدبيـات هـؤلاء فـي فكرهـم: اختـر فكـرة، أي فكـرة تخطـر علـى بالـك وسـتجد فـي ذلـك التـراث مـا يؤيدهـا ربمـا سـيحتاج دليلـك إلـى تأويـل أو توجيـه لكـن حتمـاً سـتصل لمـا تريـد.

هـذه الفكـرة انتابـت عقلـي الصغيـر حينهـا: أنهـم وضعـوا العربـة قبـل الحصـان لا الحصـان قبـل العربـة. وحضرنـي وأنـا أفكـر فـي هـذا الأمـر بحـث قـد أشـرت إليـه فـي السـابق هـو «الإرهـاب فـرض والاغتيـال سـنة». الفكـرة جاهـزة وهـي إضفـاء شـرعية علـى مـا يقومـون بـه «الإرهـاب والاغتيـال» نقبـوا فـي تراثنـا عـن مـا يؤيـد هـذه الفكـرة. بالنسـبة للإرهـاب قولـه

تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠) نعم ترهبون هي من نفس مادة الإرهاب وقد ذكرها المولى عز وجل في كتابه الكريم وهو يخاطب المسلمين. إنه طلب إلهي من المسلمين بالإرهاب فهذا يتفق مع الفكرة الجاهزة مسبقاً، لكن هل تحدث هؤلاء عن معنى مصطلح الإرهاب في الوقت الحاضر؟ وهل تحدثوا عن تفسير هذه الآية وأن المقصود: إرهابهم لأعداء الله والإسلام لا المسلمين؟ وهل ذكروا أن الإرهاب هنا إرهاب نفسي فقط. وهو وجود تسليح قوي حتىٰ يخاف أعداء المسلمين من قوة جيوشهم وعدتهم بدليل قوله تعالى ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال:٦٠) فهذا يعني هنا أن الإرهاب نفسي فحتى الأعداء الذين لا تعلمونهم سيخافون من قوتكم ولن يعلنوا عداوتهم لكم مخافة قوتكم.

ولكن مصطلح الإرهاب في الوقت الحاضر يقصد به الأفعال التي تؤدي إلى جرائم النفس والمال والممتلكات العامة والخاصة شتان بين هذا وذاك.

هل قتل شيماء الصغيرة هو ذلك الإرهاب المقصود في الآية؟

أما الاغتيال فقد بحثوا في السنة فجاؤوا بحادثة تخطيط

عن عبد الله بن أنيس قال: دعاني رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني فائته فاقتله». قال: قلت: يا رسول الله، انعته لي حتىٰ أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قشعريرة». قال: فخرجت متوشحًا سيفي حتىٰ وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلًا، وحين كان وقت العصر فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة؛ فصليت وأنا أومئ برأسي الركوع والسجود. فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك في ذلك، قال: أجل أنا في ذلك. قال: فمشيت معه شيئًا حتىٰ إذا أمكنني حملت عليه بالسيف حتىٰ قتلته ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني قال: «أفلح الوجه». قال: قلت: قتلته يا رسول الله. قال: «صدقت»....(رواه أحمد: ١٦٠٤٧)

هل انتبه هؤلاء أن القتل كان من مسلم لكافر خطط لاغتيال أشرف خلق الله تعالى. وهل أدرك هؤلاء أن الرسول علم بما يُوحى إليه ما يخطط هؤلاء ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ (النجم:٣) إنهم يرون من النصوص ما يريدون فقط. يهدمون النص أمام عينيك ويبنونه مرة أخرىٰ ولكن بصورة

تـرى مـن خلالهـا مـا يريـدون منـك رؤيتـه، هـذا هـو فكرهـم.

ولنعُـدْ مـرة أخـرىٰ لمجمـوع الفتـاوى لابـن تيميـة، الكتـاب يسـمى فتـاوى والفتـوى ليسـت حكمًـا شـرعيًّا مطلقًـا بـل هـي مرتبطـة بظـروف محـددة يتـم علـى أساسـها الحكـم بالفتـوى. ومسـألة ماردين فتـوى خاصـة بحالـة بعينهـا.

ولنضـرب مثـالاً علـى ذلـك لـو حلـف رجـل بالطـلاق علـى زوجتـه، هـل نحكـم بوقـوع الطـلاق مـن عدمـه لمجـرد الحلـف بـه. أم أن الأمـر يحتـاج إلـى معرفـة الظـروف ونيـة الـزوج أثنـاء ذلك.

وعلـى أسـاس ذلـك تكـون الفتـوى خاصـة بهـذا الموقـف بعينـه ولا يمكـن لنـا تطبيقهـا علـى كل موقـف مـن تلقـاء أنفسـنا.

والفتـوى الخاصـة ببلـدة ماردين خيـر دليـل علـى ذلـك، قـد أفتـى ابـن تيميـة بـأن الـدار التـي أهلهـا مسـلمون والحاكـم كافـر هـي دور مركبـة، لا هـي دور سـلم ولا دور كفـر، وعليـه كانـت فتـواه فكيـف يلبسـون مصـر هـذه الفتـوى بدعـوى كفـر الحاكـم، هـم كفـروا الحاكـم حتـىٰ يمكـن لهـم قتـال الدولـة بأنظمتهـا والخـروج عليهـا. فكيـف نلبـس فتـوى وليسـت حكمًـا شـرعيًّا مـن عهـد التتـار علـى بلـد إسـلامي فـي الوقـت الحاضـر بدعـوى كفـر الحاكـم.

رأسي الصغير كاد أن ينفجر، كيف كنت مستسلماً لهؤلاء دون تفكير؟

كيف كانت لهم تلك القدرة على بناء النص كما يريدون؟

اغتيال سيدنا عثمان

إن هؤلاء الأفراد الذين قاموا باغتيال سيدنا عثمان بن عفان ذي النورين، إنهم كانوا يظنون أنهم باغتيال عثمان بن عفان يتقربون إلى الله. إنهم رأوا النص كما يريدون، رأوا أن سيدنا عثمان يستحق القتل. كيف آمن هؤلاء بمثل هذا؟ أيُقتل أحد المبشرين بالجنة؟ أيُقتل من زوجه النبي ﷺ باثنتين من بناته؟ يا إلهي كيف خُيل لهؤلاء أن دخول الجنة يكون بقتل سيدنا عثمان؟ إن من قتل سيدنا عثمان ينتمون إلى الإسلام ويحسبون أنهم على حق وأن سيدنا عثمان على باطل.

إن هدم النصوص وبناءها وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة أمر قديم جداً.

رحمك الله أيها الشيخ المسن، كيف قتلك هؤلاء وأنت ممسك بآيات الله، وأنت تقرأ كتابه الكريم؟ كيف منع هؤلاء دفنك؟ وكيف لم تدفن بجوار رسول الله؟ وصاحبيك.

بعد وفاة رسولنا الكريم انتهت الحقيقة المطلقة التي كانت، وبدأت حياتنا كبشر، نعم نحن بشر نصيب ونخطئ وقد جعل الله الاستغفار والتوبة لأننا بشر.

بين علي ومعاوية

إن ما حدث من الفتنة بين سيدنا علي كرم الله وجهه والصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يدل على أننا بشر، وأن الحقيقة المطلقة انتهت وأن الخلافة هي أمر خاص بالسياسة لا أكثر. فهل يقتل المسلم مسلماً من أجل إقامة دين الله ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢) وقد جعل الله قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعاً، لذلك تجد أن الكثير من الصحابة قد اعتزل هذه الفتنة وهذا القتال وعندما سُئل عن ذلك قال «ائتوا لي بسيف يقول لي هذا كافر وهذا مسلم». لقد خاف أن يقتل مسلماً فيحاسب عنه يوم القيامة. وعندما قتل خالد بن الوليد رجلًا في الحرب وقد أعلن الرجل قبل قتله الشهادة، غضب الرسول الكريم ﷺ من ذلك. فقال خالد لقد قالها مخافة القتل، فقال الرسول ﷺ: أشققت عن قلبه. ما أعظم إسلامنا إنه ينهي

عـن قتـل مـن نطـق الشـهادة مخافـة القتـل فكيـف نقتـل نحـن مـن يصلـي ويصـوم بفتوانـا أنـه كافـر.

المنافقون

والمنافقـون هـم أشـد خطـراً مـن الكفـار أنفسـهم وكان يعلمهـم الرسـول الكريـم وكان لا يصلـي علـى أحـد منهـم ولكـن هـل قتلهـم أو أمـر بقتلهـم، لـم يقتلهـم حتـىٰ لا يأتـي يـومٌ يقتـل المسـلم مسـلمًا بدعـوى النفـاق.

دخـل النبـي ﷺ المدينـة وعـاش المسـلمون مـع اليهـود حتىٰ خانـوا عهدهـم مـع رسـول اللـه فـكان عقـاب الرسـول ﷺ لهم.

قتل الأقباط

إن مـا حـدث مـن الجماعـة الإسـلامية فـي تسـعينيات القـرن المنصـرم مـن حـوادث قتـل وترويـع لأقبـاط مصـر، أمـر يسـتدعي منـا وقفـة حتـىٰ نـرى الصـورة مـن داخـل الحـدث نفسـه. فـي مصـر فـي حـواري القاهـرة وأزقتهـا فـي نجـوع الصعيـد وقـراه يعيـش القبطـي مـع المسـلم دون تفرقـة تذكـر. هـذا التعايـش ومـازال، فـي الزراعـة يتشـاركون الزراعـة، وفـي التجـارة يتبادلـون البضائـع بيـن بائـع ومشـترٍ وبيـن بيـوت القريـة والحـواري تتجاور البيـوت فيمـا بينهـا ويلعـب الأطفـال سـوياً فـي المدرسـة.

لكـن مـع ظهـور الجماعـة الإسـلامية وجـدت هـذه الجماعـة قضيـة الفتنـة الطائفيـة شـوكة تغرسـها فـي ظهـر النظـام فقامـت بإشـعال نيـران تلـك الفتنـة. فلـو قامت مشـكلة بيـن طفليـن أحدهمـا قبطـي، أشـعلوا فتيـل الطائفيـة، ولـو تـم خـلاف علـى أرض زراعيـة بيـن مزارعيـن أحدهمـا قبطـي أشـعلوا نيـران الفتنـة، وإذا اشـتعلت الفتنـة قُتـل وأُصيـب الكثيـر مـن الطرفيـن.

الفتنـة الطائفيـة بهـذه الصـورة البشـعة هـي مـن إنتـاج الجماعـات الإسـلامية والجماعـة الإسـلامية بالأخـص.

حتـى إن الجماعـة الإسـلامية اسـتحلت أمـوال هـؤلاء الأقبـاط فهاجمـوا محلاتهـم ونهبوهـا بدعـوى أن أموالهـم حـلٌ لنـا. والحقيقـة أنهـم كانـوا يعانـون مـن ضعـف التمويـل، فـأرادوا المـال فكانـت فتواهـم تلـك بحِـل أمـوال الأقبـاط. كيـف ذلـك وقـد مـات النبـي ودرعـه مرهونـة عنـد يهـودي؟ لمـاذا لـم يسـتحل مالـه.

الأقبـاط فـي مصـر قبـل دخـول الإسـلام، وعندمـا دخـل الإسـلام اعتنـق الكثيـر منهـم الإسـلام وظـل البعـض علـى دينـه دون أدنـى مضايقـة مـن المسـلمين عاشـوا معـاً فـي مصـر منـذ الفتـح الإسـلامي حتـىٰ الآن. الفتنـة الطائفيـة بصورتهـا البشـعة اختـراع الجماعـات الإسـلامية.

قتل السياح

هـي قضيـة غيـر معقولـة لـي. وظللـت وأنـا فـي غياهـب الجماعـة الإسـلامية أسـأل نفسـي مـا الدليـل الشـرعي الـذي يرجعـون إليـه فـي تحليـل قتـل هـؤلاء؟

تـارة أسـمع أقـوالاً عـن عُرِيِّهـم وأن هنـاك شـاطِئًا للعـراة مخصصًـا لهـم. وتـارة أسـمع أنهـم يرفعـون اقتصـاد البلـد فيقوى الحاكـم بذلـك. وعليـه لابـد مـن قتـل السـياح لإضعـاف الدولـة.

هـذا مـا كنـت أسـمعه ولكـن هـل هـذا دليـلٌ لقتـل شـخص أتـى لمشـاهدة آثـار مصـر والتمتـع بجوهـا وشـطآن بحارهـا؟ هـل قتـل هـؤلاء السـياح يرفـع شـأن الديـن الإسـلامي؟ شـخص أتـى مـن بـلاده لتقتلـه أنـت لمجـرد إضعـاف الاقتصـاد وبالتالـي تضغـط علـى النظـام.

كيف يصنعون آلة للقتل؟

لعـل السـؤال الـذي ظـل يتـردد وسـيظل يتـردد: كيـف تصنـع هـذه الجماعـات آلـة للقتـل؟ إنسـان يقتـل نفسـه عـن طيـب خاطـر فضـلاً عـن قتلـه للآخريـن.

كيـف يؤمـن الفـرد فـي هـذه الجماعـة أن القتـل هـو الخيـار الأفضـل لـه؟ كيـف يفجـر نفسـه وهـو راضٍ؟ وهـل ذلـك يـدل علـى نبـل رسـالته التـي يضحـي مـن أجلهـا؟

الأمـر أبسـط مـن ذلـك بكثيـر، إنهـا خطـوات يتبعهـا كل صاحـب فكـرة.

الخطـوة الأولـى: هـي أن تجعـل الآخـر يقتنـع بهـذه الفكـرة. والثانيـة: أن يترسـخ لديـه قيمـة هـذه الفكـرة وسـموها عـن كل مـا عداهـا. والثالثـة: أن المـوت أو القتـل فـي سـبيل هـذه الفكـرة انتصـار لهـذا الفـرد.

وكـون الفكـرة مشـروعة أو غيـر مشـروعة لا يؤثـر ذلـك مطلقـاً فـي هـذه الخطـوات والوصـول إلـى ذروة اقتنـاع الفـرد بهـذه الفكـرة.

السـعادة التـي يصـل إليهـا الفـرد أثنـاء قتلـه لنفسـه أو غيـره ليسـت مرتبطـة بماهيـة الفكـرة التـي يفعـل ذلـك مـن أجلهـا، ولكـن مرتبطـة بمـدى اقتناعـه بهـذه الفكـرة. والتاريـخ والواقـع خيـر دليـل علـى ذلـك. أفـكار كثيـرة شـاذة عبـر التاريـخ يمـوت أصحابهـا باختيارهـم مـن أجلهـا.

وسـنتناول هنـا حادثـة الانتحـار الجماعـي التـي راح ضحيتهـا أكثـر مـن تسـعمائة فـرد مـن أجـل الإيمـان بفكـرة شـخص واحـد اسـتطاع إقناعهـم بالانتحـار الجماعـي وقتـل أطفالهـم مـن أجـل أفـكار هـذا الرجـل.

إنهـا حادثـة الانتحـار الشـهيرة التـي حدثـت فـي شـهر نوفمبـر عـام١٩٧٨ فـي دولـة غيانـا. التـي اسـتطاع فيهـا جيـم

جونـز إقنـاع أتباعـه بتنـاول سـم السـيانيد هـم وأطفالهـم. كيـف اسـتطاع جيـم جونـز إقنـاع هـذا العـدد الهائـل بالمـوت مـن أجـل المـوت فـي سـبيل أفـكاره هـو.

دراسـات قامـت علـى دراسـة جيـم جونـز تـدل علـى أنـه لـم يكـن شـخصية سـوية، حتـىٰ عندمـا أسـس معبـد الشـعوب عـام١٩٥٦ فـي إنديانـا الـذي كان يدعـو مـن خلالـه إلـى نبـذ التفرقـة والعنصريـة بيـن الشـعوب، ولكنـه عندمـا انتقـل بأتباعـه إلـى مدينـة جونـز تـاون ظهـرت معاملتـه القاسـية لمن يخالفـه مـن أتباعـه، ولكنـه ظـل مسـيطرًا علـى عقولهـم بخطبه حتـىٰ خطبتـه الأخيـرة التـي طلـب منهـم التخلـي عـن حياتهـم، فتقبـل أتباعـه ذلـك بسـعادة رغـم معارضـة البعـض لذلـك، إلا أنـه فـي النهايـة مثـل الجميـع لفكـرة الانتحـار ونفذوهـا مـن أجـل إعـلاء مبـادئ أتبـاع معبـد الشـعوب.

المـوت فـي سـبيل شـيء لا يعطـي لـه الشـرعية مطلقـاً، فمـن يمـوت ليفتـدي زعيـم عصابتـه لا يعنـي أن هـذا الزعيـم علـى حق.

ومـن يفجـر نفسـه فـي مجموعـة مـن البشـر فيمـوت ويموتـون، لا يعنـي ذلـك أن هـذا الرجـل مـات علـى حـق.

فـي عصـور الإسـلام الأولـى مسـيلمة الكـذاب الـذي ادعـى النبـوة مـات مـن أجلـه بشـر كثيـرون فهـل يعنـي ذلـك أنـه كان علـى حـق؟ ومـن قتلـوا سـيدنا عثمـان كانـوا يحسـبون أنهـم

على حق. ومن قتلوا أهل بيت رسول الله ﷺ ومثلوا بجثة سيدنا الحسين، كانوا يحسبون أنهم على حق.

وكذلك كل الفرق الضالة، الموت في سبيل الفكرة لا يعني فتح باب الجنة لمن مات في سبيلها. ومن قتل بشراً لظنه أن من واجبه قتلهم فقد ارتكب إثماً كبيراً.

لو كان القتل مباحًا لأمر رسول الله ﷺ بقتل المنافقين، وقتل الكفار جميعاً. الموت والقتل من أجل فكرة لا يعطي لها أي شرعية.

كل ما يحدث من هؤلاء مجرد صناعة، صناعة آلة للقتل بغض النظر عن السبب الذي تقتل من أجله. إنه نوع من غسيل الأدمغة.

أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك

أراني مدفوعاً دفعاً عند هذه النقطة للتفكير في هذين الرجلين أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك. لقد دافع هذان الرجلان عن الدين الإسلامي دفاعاً مستميتاً، لم يدافعوا عنه بالقتل والإرهاب والاغتيال وقتل الأقباط وقتل السياح، بل دافعوا عن هذا الدين بالفكرة، بالكلمة، بالقول في كل مكان. دوت كلمتاهما أقوى من تفجيرات كل تلك الجماعات.

آمن على يديهم الكثير والكثير، نشروا فكر الإسلام السمح في أفريقيا وأوروبا وآسيا وأمريكا.

أحمد ديدات وذاكر نايك لم يكونا من المسلمين العرب. إنهم أجانب فهل هذا سر نجاحهما كونهما من غير العرب؟ لا أعتقد ذلك.

ذهبت إلى كتب أحمد ديدات، قرأت له الكثير والكثير قبل أن أهجر هذه الجماعة فوجدت أنه يرى النص من زاوية أخرىٰ. يرى الإسلام دين السماحة ينتشر بالكلمة ويقوى بها، فمعجزة الإسلام القرآن وهو كلام الله عز وجل.

هل ما قدمه أسامة بن لادن والظواهري للإسلام أفضل؟ أم ما قدمه أحمد ديدات وتلميذه ذاكر نايك؟

عزيزي القارئ المعرفة الآن أيسر، اذهب إلى جهاز الكمبيوتر أو هاتفك المحمول وشاهد اللقاءات المصورة لهذين الرجلين وكيف دافعا عن الإسلام بالكلمة فقط. فكان دفاعهما أقوى من كل قنابل أسامة بن لادن. أفكارهما أقوى تأثيراً من تفجيرات برجي التجارة ومن تفجيرات السفارات الأمريكية في أنحاء العالم. في هذا الوقت شاهد كيف يتحدث ذاكر نايك عن الإرهاب بمنتهى القوة عندما يقول: إن ما يفعله المسلمون من قتل وتفجيرات

خطـأ وإن مـا تفعلـه أمريـكا بالمسـلمين خطـأ أيضـاً. شـاهد ذلـك الرجـل الأجنبـي النحيـف كيـف يدافـع عـن الإسـلام أمـام آلاف البشـر وكيـف يـرد عـن شـبهاتهم حـول الإسـلام.

وعلـى النقيـض تـرى مـن أسـامة بـن لادن والظواهـري والجماعـات الإسـلامية التهديـد والوعيـد بالتفجيـرات والاغتيـالات لـكل مـن خالفهـم. هـل الإسـلام ينتشـر بتفجيـر مسـجد أو حتـىٰ كنيسـة؟ هـل الإسـلام يقـوى بقتـل أهـل فرنسـا المدنييـن دون ذنـب؟ هـل إسـلامنا يقـوى بقتـل شـيماء الصغيـرة؟ هـل إسـلامنا يقـوى بقتـل السـياح فـي الأقصـر؟ إسـلامنا يقـوى بأخلاقنـا بالقـدوة الصالحـة. لـو أنفـق ذلـك الثـري أسـامة بـن لادن أموالـه فـي خدمـة المسـلمين فـي بنـاء المـدارس والجامعـات وتبنـي نوابـغ الطـلاب وإيفـاد البعثـات للخـارج. لـو تبنـى بـن لادن إطعـام الجوعـىٰ وتوفيـر عمـل لهـم لـكان أعظـم أجـراً عنـد اللـه.

نقطـة بدايـة أسـامة بـن لادن ونقطـة نهايتـه توضـح لـك كـم أسـاء هـو والجماعـات الإسـلامية لهـذا الديـن. وأن مـا يصنعـه الآن فـرد واحـد بالكلمـة فقـط أنفـع للإسـلام مـن أسـامة بـن لادن وأتباعـه فـي بقـاع الأرض جميعـاً.

هؤلاء بشر مثلنا

إن أفـراد الجماعـة الإسـلامية بشـر يحتمـل فعلهـم وأقوالهـم الصـواب والخطـأ. هـل كل مـا آمنـوا بـه صـواب؟ هـم احتمـوا بفكـرة العنـف ضـد كل شـيء، العنـف ضـد المجتمـع والنظـام والحـكام. الصـدام أسـاس فكـر الجماعـة الإسـلامية، لـم يتصالحـوا مـع مـن حولهـم. لـم يندمجـوا بيـن أفـراد المجتمـع. يحضرنـي تشـبيه الفيلسـوف الأديـب زكـي نجيـب محمـود «كأنهـم بقعـة زيـت علـى صفحـة المـاء فلـم ولـن تمتـزج هذه البقعـة مـع هـذا الكـم الهائـل مـن المـاء». هـؤلاء ظلـوا بقعـة فـي المجتمـع لـم يغوصـوا يومـاً إلـى القـاع بـل ظلـوا علـى اسـتعلائهم دومـاً. حتـىٰ عندمـا أعلنـوا مبـادرة وقـف العنـف ونبـذه ظهـرت مراجعتهـم الفكريـة. هنـاك مـن آمـن بهـا مـن قـادة الجماعـة، وهنـاك مـن رفضهـا رفضـاً صريحـاً، وهنـاك مـن داهـن حتـىٰ يخـرج مـن السـجون ولكنـه ظـل يحمـل فـي داخلـه بـذرة العنـف. والخلافـات الكثيـرة التـي حدثـت حتـىٰ تخـرج هـذه المبـادرة، ومـا حـدث بعـد خروجهـم وبعـد تولـي محمـد مرسـي رئاسـة مصـر ثـم عزلـه يـدل علـى أن هنـاك مـن القـادة لتلـك الجماعـة مـن ظـل علـىٰ حالـه تجـاه مسـألة العنـف ضـد الدولـة والنظـام والمجتمـع. فـي قيـادة الجماعـة

تحدث تكتلات وخطط لإقالة البعض وتولى البعض. عزيزي القارئ إنها سياسة ولكنها تحتمي بعباءة الدين.

انظر ما الفائدة التي قدمتها تلك الجماعات للمجتمع منذ نشأتها حتىٰ الآن. كل ما قدمته اغتيالات وحوادث قتل وتفجيرات هنا وهناك.

الانفصال

إن الطريق لله وإلى الجنة لم يكن أبداً مملوءًا بدماء البشر المسيء منهم والمصيب، هل أدخل الجنة بقتل بشر مثلي لا يحملون سلاحاً ولا يقاتلوننا؟ كيف نقتل شيماء ونقول تبعث على نيتها؟ الكل يبعث على نيته، هل أنتم تعلمون ما سيحدث بين العبد وربه بعد الموت؟. الكل سيبعث على نيته. هل الغاية تبرر الوسيلة؟ هل الوصول للحكم الذي تريده تلك الجماعات بقتل الأبرياء؟ الإسلام دين حياة لا دين موت، الإسلام هو الدين الذي جعل النبي ﷺ يبكي عندما مرت جنازة يهودي لأنه لم يدخل الإسلام. لم يقل إلى الجحيم لم يفرح بموته لم يدْعُ عليه ولم يسخر منه، بل بكى ﷺ لأن هذه النفس ستدخل النار. هذا هو الإسلام. الآية التي يذكرها قادة الجماعة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ

اللّـهِ وَعَدُوَّكُـمْ وَآخَرِيـنَ مِـن دُونِهِـمْ لاَ تَعْلَمُونَهُـمُ اللّـهُ يَعْلَمُهُـمْ ﴾ (الأنفال:٦٠) هـل القـوة فقـط فـي القتـل، القـوة تكـون فـي العلـم فـي التقـدم الاقتصـادي فـي محاربـة الفقـر والجهـل والمـرض، أين تلـك الجماعـات مـن هـذه القـوة؟ كيـف يذكـرون قـوة القتـل فقـط؟ فكلمـة قـوة فـي الآيـة الكريمـة جـاءت نكـرة لتشـمل كل أنـواع القـوة، أيـن القـوة فـي منـح الحيـاة؟ فـي معالجـة مريـض أوشـك علـى المـوت، فـي تعليـم طفـل يتيـم، فـي تقديـم يـد العـون لـرب أسـرة فقيـر. الإسـلام ديـن يمنـح الحيـاة لا المـوت. وعندمـا كان القصـاص فـي بعـض الجرائـم، القتـل حـداً، ذكـر المولـى عـز وجـل أن هـذا القصـاص حيـاة لأنـه يمنـع تكـرار تلـك الجرائـم وجعـل لولـي الـدم الحـق فـي العفـو وقبـول الديـة. لـم يكـن الإسـلام دينًـا لسـفك الدمـاء المطلـق. كان النبـي ﷺ يوصـي أصحابـه عنـد الخـروج إلـى الغـزوات بعـدم قتـل الأطفـال والنسـاء والعجائـز ومـن لا يحمـل سـلاحاً والمرضـى ولا يقطـع شـجرة ولا يتلـف زرعـاً. إنـه الإسـلام ديـن الحيـاة.

إن الجماعـات الإسـلامية تربـي الفـرد حتـىٰ يصبـح أداة للقتـل فـور سـماعه الأمـر.

بعـد تفكيـر عميـق لأيـام طويلـة قـررت تـرك الجماعـة الإسـلامية لأنـي لـم أخلـق لأقتـل. ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُون﴾ (الذاريـات:٥٦) خلقنـا اللـه للعبـادة وإعمـار الأرض

ودعـوة النـاس لعبادتـه دون قتلهـم، فلـم يعـطِ الإسـلام لفـرد صـكاً لقتـل النـاس ولا الخليفـة نفسـه. راجـع نظـم القضـاء فـي الإسـلام، القضـاء فقـط هـو مـن يحكـم بيـن النـاس بعضهـم بعضـاً، وبيـن الرعيـة والحاكـم نفسـه.

قـررت أن أتـرك الجماعـة الإسـلامية حتـىٰ لا أقتـل طفلـة مثـل شـيماء وتمسـك فـي رقبتـي يـوم القيامـة وتسـألني بـأي ذنـب قتلتنـي؟ هـل أقـول لهـا بُعثتـي علـى نيتـك، سـتقول لـي مـا لـك أنـت ومـا بينـي وبيـن ربـي يـوم القيامـة؟ تركـت الجماعـة حتـىٰ لا أقتـل قبطيـاً لـم يسـيء لـي. تركـت الجماعـة حتـىٰ لا أقتـل سـائحاً جـاء ليشـاهد الآثـار فـي مصـر. تركتهـم حتـىٰ أعيـش بالإسـلام وأتـرك غيـري يعيـش. تركتهـم لأنهـم قيـدوا فكـري وأخلاقـي ونسـوا أن القـرآن جـاء بدايـة بــ «اقـرأ» مطلقـة. القـراءة فـي كل نواحـي المعرفـة لـم تكـن القـراءة حكـراً علـى نـوع محـدد مـن المعرفـة.

أول سـورة فـي القـرآن نزلـت بأمـر القـراءة، ثـم جـاءت السـورة الثانيـة بالقسـم بالكتابـة وحروفهـا ﴿ن وَالْقَلَـمِ وَمَـا يَسْـطُرُونَ﴾ (القلـم:١) فـي أول سـورتين نزلتـا مـن القـرآن كانـت القـراءة والكتابـة همـا أسـاس تلـك الحضـارة الإسـلامية الناشـئة فـي حينهـا، القـراءة هـي أسـاس كل الحضـارات، فلـم نجـد عبـر تاريـخ البشـرية حضـارة قامـت علـى الجهـل.

عندما تركت الجماعة الإسلامية أحسست بأني اغتسلت من أوزار تلك الجماعة رغم أني لم أقترف أي جريمة، لكن وجودي معهم كان يحملني كل أوزارهم التي لم أشترك بها، فكان وجودي معهم دليلًا عن الرضا بتاريخ تلك الجماعة، تركتهم حتىٰ أقوم بردم ذلك المجرى الذي قاموا بحفره في عقلي الصغير في أيامي الأولى معهم، تركتهم حتىٰ ينعم عقلي الصغير بحرية الفكر دون وصاية من أحد، الطريق إلى الله لا يحتاج إلى من يجعلك تطرقه بالقوة، الطريق إلى الله يكون بحب الله وحب الخير للجميع، لم يفرش الطريق إلى الله بدماء البشر أيًّا كان دينهم وملتهم.

عندما تركت الجماعة لم يعْنِ ذلك ترك عبادة الله، بل كان يعني بالنسبة لي ترك الإضرار بخلق الله.

أندية الإرهاب والاحتراف

جماعة الماضي تتكرر بصور مختلفة عبر أزمنة مختلفة، نفس الأفكار والدوافع. جماعة واحدة وتفاصيل مختلفة، الجماعة الإسلامية هي جماعة الجهاد، هي جماعة الإخوان، هي جيش النصرة هي أنصار بيت المقدس، هي بوكو حرام، هي تنظيم داعش، هي تنظيم القاعدة، هي طالبان. نفس الأفكار المرجعية لكن اختلافات في تطبيق هذه الأفكار.

منهم من يُكفر الحاكم فقط ومنهم من يُكفر الشعب والحاكم، ومنهم من يُكفر الجميع ماعدا جماعته. وجماعة مصطفى شكري ليست ببعيدة عنا. لذلك نجد أفراداً ينتقلون من جماعة إلى أخرىٰ ومن فكر إلى آخر.

في البداية كان هذا الانتقال بناءً على الأفكار نفسها، لكن الانتقال الآن إلى الجماعة الأقوى والأغنى، الانتقال إلى الجماعة التي تمتلك تمويلاً دولياً، الانتقال إلى من تقف بجانبها مخابرات دول ترعى الإرهاب. هل سألت عزيزي القارئ ما هو السر وراء اكتساح داعش كل الأفكار الأخرى؟ هل تعرف لماذا تعلن الجماعات الأخرى مبايعتها لهذا التنظيم؟ الإجابة ببساطة لأن هذا التنظيم يملك تمويلاً عظيماً من دول كثيرة يعطي أفراده رواتب ضخمة. لذلك استقطب هذا التنظيم أفراداً من كل الجماعات الأخرى. إنه مثل نظام الاحتراف في كرة القدم حيث ينتقل اللاعب إلى النادي الأغنى. وما هذه الجماعات إلا أندية في دوري الإرهاب ينتقل اللاعب إلى صاحب الترتيب الأول في هذا الدوري.هل لاحظت أفول تنظيم القاعدة بعد موت ممولة الأول أسامة بن لادن؟

محاربة الإرهاب

في هذه الإشكالية لابد أن نقسم طرق مكافحة الإرهاب وتجفيف منابعه إلى ثلاثة محاور:

المحور الأول: الوقاية منه: وذلك بتشجيع الشباب على القراءة فهي خط الدفاع الأول فالإنسان المثقف من الصعب السيطرة على عقله. وتعليم مبادئ الدين الصحيح للإسلام يقي الشباب من الوقوع في براثن من يروج تعاليم تخالف الإسلام. الأسرة والمدرسة والدولة كلهم معنيون بذلك.

المحور الثاني: بداية الوقوع في براثن تلك الجماعات وقبل الوصول إلى مرحلة صنع إرهابي جديد، عند ذلك لابد من تحرك أسري لوقف هذا الوقوع، وكذلك تحرك من مؤسسات الدولة المختلفة لإنقاذ مثل هذا الشباب وإعادته ليصبح مواطناً صالحاً من جديد.

المحور الثالث: هو العنف، عند ذلك لن يجدي العلاج ولابد من مواجهة ذلك العنف بقوة القانون. فلا يمكن أن تحاول إقناع شخص سيفجر نفسه في مجموعة من البشر بأنه مخطئ ويجب عليه مراجعة نفسه، اعلم أنه قد وصل كونه آلة للقتل ولن يجدي النصح له.

لعل البعض يعارض ذلك، لكنها الحقيقة. هو سيقتلك وسيقتل نفسه وهو يعتقد أن ذلك سيفتح أمامه أبواب الجنة وأن حور العين في انتظاره بشوق..

نهاية التجربة

أيها الشاب، أرجو أن تكون تجربتي التي قصصتها عليك، تجربة لك تساعدك على الاختيار لتكون مصْلًا يَقِيك الوقوع في نفس المرض.

لعلك تحدد التقارب الشديد بين الحق والباطل، بين الصواب والخطأ، وهذا ما أردت قوله لك. إن مثل هذه الجماعات لن تجدها واضحة الضلال، بل ستجدها على حق، على حق في حرصهم على العبادات والصلاة والصوم وفي ثنايا هذا الحق سيُدس لك الباطل في توجيهك في ناحية بعينها، توجهك ناحية العنف ضد المجتمع ضد الآخر، وهذا الآخر هو كل من خالفهم في الرأي حتىٰ لو كانت جماعة أخرىٰ.

لا تدع عقلك للمتلاعبين به، وكما قلت لك القراءة والاطلاع المفتوح غير المقيد هو خير وقاء لك من الوقوع في براثن الفكر المشوه.

واعلم أن العنف ليس هو السبيل للدعوة لدين الله،

وفي سيرة الرسول ﷺ خير دليل على ذلك، فانتشار الإسلام كان بسبب مكارم الأخلاق التي دعا إليها ديننا الحنيف، دعوة الإسلام قائمة على التسامح ألم يقل عز وجل واصفاً رسوله الكريم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ..﴾ (آل عمران:١٥٩) هكذا كان الرسول رقيقاً ورحيماً ليس بالمسلمين فقط ولكن بكل الناس وما قاله عندما مرت جنازة اليهودي يدل على ذلك. ولو كان الرسول ﷺ فظاً وغليظ القلب لتركه الناس وانفضوا من حوله. فكيف تقبل هذه الغلظة ممن هم بشر عاديون أمثالنا.

التغيير الذي تنشده هذه الجماعات لن يتحقق بالعنف ولو وصلوا إلى الحكم كما حدث، لوجدت انشقاقات كثيرة بينهم.

وكما ذكرنا في التجربة الأفغانية التي فشلت عقب وصول المجاهدين إلى حكم أفغانستان رفقاء الأمس صاروا أعداء اليوم تناحروا فيما بينهم.

هناك حق واحد أحق أن يتبع، لكن الحقيقة نسبية لا يملكها واحد بعينه «الكل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر».

وإلى كل أب وكل أم عليك بتربية أولادك تربية تساعدهم في مقاومة كل انحراف، شجعهم على القراءة وممارسة

الرياضة. عرفهم دينهم الحق حتىٰ لا يقعون فريسة لمن يعلمهم الانحراف في الحياة أو الانحراف في الدين.

أعطِ أولادك الحرية ولكن راقب ممارستهم لتلك الحرية.

وإلى أجهزة الدولة المختلفة، الفقر والجهل هما البيئة التي يرتع فيها الفكر الظلامي. ساعدوا الشباب على حياة كريمة.

هذه هي تجربتي كما عشتها كما هي منذ عقود، تجربة إرهابي لكن هذا الإرهابي لم يكتمل وعاد إلى رشده وعاد إنسانًا يحلم بالبناء بعد أن كان يُعد ليحمل معول الهدم. التجربة اكتملت ولكن الإرهابي لم يكتمل.

كنت معهم.. تجربة إرهابي لم يكتمل.

****

الفهرس

الإهداء..... ٥
مقدمة..... ٧
قبل التجنيد..... ١٣
الزمان..... ١٣
المكان..... ١٤
التكوين العقلي..... ١٧
المدرسة الثانوية..... ١٩
الخطوة الأولى..... ٢١
فُتح الباب..... ٢٣
غسيل الأدمغة..... ٢٣
الميثاق..... ٢٧
غايتنا وما يتبعها..... ٢٨
حول الميثاق..... ٣٠
اليوم الرياضي..... ٣١
الحور العين..... ٣٢
الفريضة الغائبة..... ٣٣

الوِرد اليومي..... ٣٦
رحماء بينهم..... ٣٧
المهمة..... ٣٩
التنظيم الهيكلي..... ٤٠
الجناح العسكري..... ٤١
أدبيات الجماعة وما يخدمها..... ٤٢
السمع والطاعة..... ٤٤
بين موقفين..... ٤٥
المقرأة والشيخ آدم..... ٤٦
اليوم الإسلامي..... ٤٩
الاسم الحركي..... ٥١
قصص انتصارات أفراد الجماعة..... ٥٢
من الدعوة السرية إلى مرحلة تغيير المنكر..... ٥٣
كلمة حق..... ٥٥
الشهوة..... ٥٩
طه ومريم..... ٦٠
اتق الله..... ٦٢
بعد ليلة ممطرة..... ٦٢
يوم من نوع آخر..... ٦٣
الساعة..... ٦٤

اللغة العربية والجماعة..... ٦٦
أفغانستان..... ٦٧
عبد الله عزام والمجاهدين الأفغان..... ٦٩
ماذا بعد انتصار المجاهدين..... ٧١
التسجيلات الصوتية..... ٧٢
الأناشيد الإسلامية..... ٧٣
جمهورية إمبابة والزيارة الأولى..... ٧٤
المرجعية الفكرية للجماعة الإسلامية..... ٧٧
ابن تيمية وفكر الجماعة..... ٧٨
أبو الأعلى المودودي وسيد قطب..... ٧٩
الجماعات الأخرى..... ٨١
شعار الجماعة الإسلامية..... ٨١
لقد اكتمل الفرخ..... ٨٢
عفريت ممدوح ٨٤
أمن الدولة ٨٥
عبد العاطي وليس عبد العاطي..... ٨٥
عندما يأتي المساء..... ٨٦
من الأسرة إلى الأسرة..... ٨٧
الزيارة الثانية إلى إمبابة..... ٩٠
التفلت..... ٩٠

واحد على ثلاثين ٩٢
مصادر تمويل الجماعة..... ٩٢
صلاة العيد..... ٩٣
المجموعة الثقافية..... ٩٤
بداية الشك ٩٥
التعزير..... ٩٧
الحبس الانفرادي ٩٨
التكفير في مقابل التفكير..... ٩٩
اغتيال فرج فودة..... ١٠٠
دماء مقابل أحبار..... ١٠١
نجيب محفوظ وطعنة التكفير..... ١٠٢
الإرهاب فرض والاغتيال سُنة..... ١٠٣
الشيماء..... ١٠٤
زلزال وزلزال ١٠٦
هدم النص وبناء النص..... ١١٠
اغتيال سيدنا عثمان..... ١٢٣
بين علي ومعاوية..... ١٢٤
المنافقون..... ١٢٥
قتل الأقباط ١٢٥
قتل السياح ١٢٧

كيف يصنعون آلة للقتل؟..... ١٢٧
ديدات وتلميذه ذاكر..... ١٣٠
هؤلاء بشر مثلنا..... ١٣٣
الانفصال..... ١٣٤
أندية الإرهاب والاحتراف..... ١٣٧
محاربة الإرهاب..... ١٣٩
نهاية التجربة..... ١٤٠
الفهرس..... ١٤٣